كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلـة العلميـة
-------

# مقامات الاعتبار لأولى الأبصار في القرآن الكريم
## " دراسة بلاغية "

إعداد

د/ الدسوقي محمد أبو غرارة

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) بدسوق

( العدد التاسع والثلاثون )

( الإصدار الثاني ـ الجزء الرابع )

( ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م )

# مقامات الاعتبار لأولى الأبصار فى القرآن الكريم " دراسة بلاغية."

الدسوقى محمد الدسوقى أبو غرارة.
قسم البلاغة والنقد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر- دسوق - مصر.
البريد الإلكترونى:Eldesoukyabogharara.215@azhar.edu.eg

## الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة آيات من الذكر الحكيم اتجهت فى سياقها إلى دعوة أولى الأبصار إلى الاعتبار بما فيها من دلائل باهرة، وآيات معجزة، ومواقف تدفع إلى الاعتبار والاتعاظ بما جاء فى طياتها من أحداث لم تجر على وفق ما تقتضيه عقولنا البشرية القاصرة، أو ظهرت فيها دلائل القدرة فى أجل صورها ، وأدق معانيها. وقد قصد البحث إلى بيان معنى العبرة والاعتبار ولفظ "عبرة" ومشتقاته فى القرآن الكريم وذلك فى تمهيده، ثم شرع فى دراسة مقامات تلك الآيات دراسة بلاغية تكشف عن سر دعوة أولى الأبصار . خاصة . إلى الاعتبار بما جاء فيها، وسر اختلاف كل مقام عن غيره، وأثر السياق الكلى والخاص للسورة فى توجيه هذا الاختلاف، وكيف اقتضاه كل مقام.

**الكلمات المفتاحية**: اعتبار . أولى الأبصار . مقامات – القرآن الكريم

# orders of cosideration to wise people in the holley Qur'an Rhetorical study

**Eldesouky mohamad abo gharara**
**Department of Rhetoric and Criticism - College of Islamic and Arab Studies - Al azhar university. Dsouk,**
**E mail:Eldesoukyabogharara.٢١٥@azhar.edu.eg**

## Abstract

**This research aims to study verses of the holley Qur'an that tend to call wise people to think about its evidences and clear proofs that motivate to get moral and understand what our limited human minds can not see .This research aimed to clarify meaning of moral and cosideration .in addition to clarify the expression of (moral ) and its depretatives in the holley Quran in the introduction of the research ,then continued to study orders of these verses eloginically to understand the secret behind calling wise people particularly and why was every order different than others ,in addtion to clarify the effect of the atmospher of each chapter in shaping this difference according to different orders.**

**Key words :consideration, wise people, orders (makamat ), The Holy Quran.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان، علمه البيان، وميزه عن سائر الكائنات بالعقل والإدراك، ودعاه إلى التأمل والاعتبار، والتدبر والاتعاظ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، خير من فكر وتدبر، واعتبر وتأمل، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فمن اليقين الذي لا يعتريه شائبةٌ من شك أن هذا الكتاب المنزل على رسول الله (ﷺ) فيه ما يصعد بالإنسانية إلى أرفع مدارج الكمال، ويهديها إلى سواء السبيل، وينشد لها السعادة في الدارين، نزلت آياته هدى ونورًا للبشرية كلها، قضت على الأوهام الباطلة، والأساطير الكاذبة، والعبادات الضالة، والأديان المنحرفة، وأحالت الظلام ضياء، والشقاوة سعادة، واليأس أملًا.

وقد أرشد القرآن الكريم في العديد من آياته إلى ما يحقق ذلك في واقع البشرية، ومن بين السبل التي سلكها في تحقيق ذلك دعوتهُ الدائمة إلى إعمال العقل، وحثه الدائم على إطلاقه من قيد أسره، ومن بينها كذلك دعوته إلى الاعتبار عامة، وإلى اعتبار أولى الأبصار خاصة، وقد لفت انتباهي من خلال القراءة والنظر، والتأمل في كتاب الله تلك الآيات التي قصدتْ هذا الصنف داعية لهم إلى الاعتبار، فقلت في نفسي ولم لا أجمع تلك الآيات، وأخصها بالدراسة البلاغية التحليلية التي تكشف عن سر توجيه الاعتبار فيها إلى أولى الأبصار خاصة؟، وكيف ناسبت هذه الدعوة سياقها ومقامها؟ ، مع محاولة تلمس مواطن الإعجاز البلاغي في تلك الآيات، والوقوف على دقة النظم فيها، وبلاغة أساليبها، وروعة تراكيبها، وجعلت عنوان تلك الدراسة: (مقامات الاعتبار لأولى الأبصار في القرآن الكريم " دراسة بلاغية".

وكان منهجي في تلك الدراسة قائمًا على تقسيم تلك الآيات التي دعت أولى الأبصار إلى الاعتبار إلى مقامات، وجعلت من كل مقام مبحثًا خاصًا به، يحمل عنوانًا يتناسب مع مضمونه، ثم تحليل نصه تحليلًا بلاغيًا، معتمدًا المنهج التحليلي التكاملي والنظرة الشمولية للنص، كاشفًا عن علاقته بالسياق الكلي للسورة، والمقاصد التي تهدف إليها، وكذلك علاقته بالسياق الخاص السابق عليه؛ لأن التحليل البلاغي للنص عامة، وللنص القرآني خاصة يتطلب الوقوف على هذين السياقين، كما لم أغفل الإشارة إلى بعض الموازنات البلاغية للأساليب والتراكيب التي جاءت مشتبهة في النظم مع ما جاء في هذه المقامات، مع محاولة تلمس أسرار تلك المغايرة الأسلوبية من خلال الوقوف على السياق الذي وردت فيه، وكذلك محاولة الكشف عن دقة النظم القرآني في التعبير بالمفردة القرآنية، وسر إيثار التعبير بها دون غيرها من بدائلها اللغوية، مع تحديد مواقع بعض الجمل وإعراب بعض الألفاظ في النص؛ لأن ذلك هو المدخل في الكشف عن الملامح والظواهر البلاغية، والوقوف على أسرارها.

وقد تضمن هذا البحث مقدمة وتمهيدًا، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وثبتًا للمصادر والمراجع، ثم فهرسًا للموضوعات.

**أما المقدمة** فتحدثت فيها عن الأسباب التي دفعتني إلى تلك الدراسة ومنهجي فيها.

**وفي التمهيد** بينت معنى العبرة والاعتبار ودلالتهما اللغوية ومواطن ورودهما في القرآن الكريم. كما بينت معنى أولي الأبصار، ومواطن ذكرهم في القرآن الكريم والفرق بينهم وبين أولي الألباب.

أما المباحث الثلاثة فجاءت كالتالي:

١. **المبحث الأول**: مقام الاعتبار لأولى الأبصار في سورة آل عمران في سياق غزوة بدر الكبرى.

٢. **المبحث الثاني**: مقام الاعتبار لأولى الأبصار في سورة الحشر في سياق جلاء يهود بني النضير عن المدينة[١] .

٣. **المبحث الثالث**: مقام الاعتبار لأولى الأبصار في سورة النور في سياق بيان بعض دلائل القدرة.

**ثم جاءت الخاتمة** فضمنتها أبرز النتائج التي ظهرت أثناء البحث، وبعدها أثبت فهرس المصادر والمراجع التي أفدت منها.

وفي النهاية ذكرت فهرسًا لمحتويات البحث.

وأسأل ربي – سبحانه – التوفيق في هذا العمل المتواضع، وأن يتقبله مني في صالح الأعمال، وإن كنت قد أصبت ففضل من الله ونعمة، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت. والله من وراء القصد.

(١) جعلتُ هذا المقام ثاني المباحث ، مع تأخر سورة الحشر في الترتيب المصحفي على سورة النور ؛ وذلك لارتباط هذا المقام بالمقام السابق عليه ، فكلا المقامين يتعلق بآية عجيبة عن طبيعة المواجهة بين المسلمين وأعداء الدعوة من المشركين واليهود.

# تمهيد

## دلالة العبرة والاعتبار:

إن دراسة الآيات الداعية لأولى الأبصار إلى الاعتبار دراسة بلاغية تقتضي بداية أن أبيِّن معنى العبرة والاعتبار، ففي تحديد الدلالة اللغوية لهما دور في فهم الخصائص البلاغية التي حفلت بها تلك الآيات، وإبراز لكيفية وفائها بالمعنى على أتم وجه وأكمله.

والاعتبار مصدر، و(عِبْرة) على وزن (فِعلة) اسم مرة، وكلاهما مأخوذ من مادة (عَبَرَ)، وهذه المادة تدور في كتب اللغة حول: النفوذ والمضي في الشيء، وتجاوز الشيء، والانتقال به من حالة لأخرى، ومساواة الشيء بالشيء.

ففي مقاييس اللغة:" يقال: عَبَرْتُ النَّهْرَ عُبُورًا. وَعَبْرُ النَّهْرِ: شَطُّهُ. وَالْعِبْرَةُ والِاعْتِبَارُ مأخوذَانِ مِنْ عَبْرِيِّ النَّهْرِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عِبْرٌ مُسَاوٍ لِصَاحِبِهِ فَذَاكَ عِبْرٌ لِهَذَا، وَهَذَا عِبْرٌ لِذَاكَ. فَإِذَا قُلْتَ اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فَكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْءِ فَجَعَلْتَ مَا يَعْنِيكَ عِبْرًا لِذَاكَ: فَتَسَاوَيَا عِنْدَكَ"(١).

وعند الراغب: "أصل العَبْرِ: تجاوز من حال إلى حال، فأما العبور فيختص بتجاوز الماء، إما بسباحة، أو في سفينة، أو على بعير، أو قنطرة، ومنه: عبر النهر: لجانبه حيث يعبر إليه أو منه،... وعبر القوم: إذا ماتوا، كأنهم عبروا قنطرة الدنيا، وأما العبارة فهي مختصة بالكلام العابر الهواءِ من لسان المتكلم إلى سمع السامع، والاعتبار والعبرة: بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما

(١) مقاييس اللغة، للرازي: (٢٠٧/٤- ٢١٠) مادة (عبر)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

ليس بمشاهد... والتعبير: مختص بتعبير الرؤيا، وهو العَابِرُ من ظاهرها إلى باطنها" (١).

" والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، وبهذا سميت العبرةُ عبرةً؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخدِّ، وسمي علم التعبير؛ لأن صاحبه ينتقل من المتخيّل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات؛ لأنها تنقل المعاني عن لسان القائل إلى عقلِ المستمع. ويقال: السعيد من اعتبر بغيره؛ لأنه ينتقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه" (٢).

وعلى هذا فالملمح الدلالي الذي يميز تلك الكلمة ويلازمها في جميع مشتقاتها اللغوية هو التجاوز بالشيء، والانتقال به من حالة إلى أخرى، أو قياس ما هو غائب على ما هو حاضر، أو ما غاب وبطن على ما هو شائع ومعلوم، ولذلك وجدنا بعض العلماء يستدل بقوله – تعالى–: {فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ} (٣) عند تعرضه لتفسير تلك الجملة على (مشروعية القياس)، فقال: "
واشتهر بالاستدلال بهذه الجملة على مشروعية العمل بالقياس الشرعي، قالوا: لأنه

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى (ص: ٥٤٣)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق– بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني: (١٨/ ٥٦٧)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢.

– تعالى – أمر فيها بالاعتبار، وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحقق في القياس؛ إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع "[1].

ولذلك يقول القشيري:" الاعتبار هو: النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها؛ ليعرف بالنظر فيها شيء آخر" [2].

لفظ (عبرة) ومشتقاته في القرآن الكريم:

وبالنظر في القرآن الكريم نجد لفظ (عبرة) ورد ست مرات[3]، وصيغة المضارعة من مادة الكلمة مرة واحدة (تعبرون)، وصيغة الأمر(فاعتبروا) كذلك، وعلى ذلك: فالكلمة بجميع مشتقاتها ورد ثماني مرات، وهي على حسب الترتيب المصحفي كالآتي:

١- قال – تعالى– في سورة آل عمران: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾}[4].

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي: (١٤/ ٢٣٦) المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

(٢) تفسير الرازي= التفسير الكبير: (٢٩/ ٢٤٥) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

(٣) سوف أعقد في نهاية البحث موازنة بين المقامات التي ورد فيها هذا اللفظ كاشفًا عن سر تقييد الاعتبار بأولي الأبصار في بعضها ، وتقييده بأولي الألباب في واحدة منها ، وعدم تقييده في السياقات الأخرى .

(٤) الآية : ١٣.

٢- وقال – تعالى– في سورة يوسف: { وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ }[1].

٣- وقال – تعالى– في سورة يوسف: { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ }[2].

٤- وقال – تعالى– في سورة النحل: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ }[3] .

٥- وقال – تعالى– في سورة المؤمنون: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ }[4] .

٦- وقال – تعالى– في سورة النور: {يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ }[5].

---

(١) الآية: ٤٣.

(٢) الآية: ١١١.

(٣) الآية: ٦٦.

(٤) الآية: ٢١.

(٥) الآية: ٤٤.

٧- وقال – تعالى– في سورة الحشر: { هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ }(١) .

٨- وقال – تعالى– في سورة النازعات: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦}(٢) .

ولما كان الغرض من هذه الدراسة هو التحليل البلاغي لآيات الاعتبار لأولى الأبصار، اقتصرتْ على ثلاثة مواطن من بين هذه الثمانية، والتي جاءت في سياق سور آل عمران، والنور، والحشر، وقبل التعرض للتحليل البلاغي لهذه المقامات أود الإشارة إلى من هم أولوا الأبصار في القرآن الكريم والفرق بينهم وبين أولى الألباب، فإلى بيان ذلك.

أولوا الأبصار في القرآن الكريم والفرق بين أولي الأبصار وأولى الألباب:

يقتضي بيان معنى (أولي الأبصار) الوقوف أولا على الدلالة اللغوية للفظ (الأبصار)، وهي تدور حول الرؤية، والوضوح، والظهور، والعلم، وبيان الشيء، والاهتداء إليه، والوقوف على حقيقته، والنفاذ إليها.

فالبصر: يقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: {كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ}(٣) ، وقوله – سبحانه–: {وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ} (٤)، وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة:

(١) الآية: ٢.

(٢) الآية: ٢٦.

(٣) سورة النحل، من الآية :٧٧.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية:١٠.

بصيرة وبصر، نحو قوله تعالى : {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ}(١)، وقوله – سبحانه– { مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ }(٢)،وجمع البصر: أبصار ، وجمع البصيرة: بصائر ، قال تعالى : {فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ }(٣)، ولا يكاد يقال: للجارحة بصيرة، ويقال: من الأول أبصرت، ومن الثاني: أبصرتُه وبصُرتُ به، وقلَّما يقال بصُرت في الحاسة إذا لم تُضامَه رؤية القلب، وأَبصره إذا أَخبره بِالَّذِي وَقَعَتْ عليه عَيْنُهُ، وباصَرَه: نَظَرَ مَعَهُ إِلى شَيْءٍ أَيُّهما يُبْصِرُه قَبْلَ صَاحِبِهِ، وباصَرْتُه إِذا أَشْرَفتَ تَنْظُرُ إِليه مِنْ بَعِيدٍ. وتَباصَرَ القومُ: أَبْصَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والبَصَرُ: نَفاذٌ فِي الْقَلْبِ. وبَصرُ الْقَلْبِ: نَظَرَهُ وَخَاطِرُهُ، والبَصِيرَةُ: عَقِيدَةُ الْقَلْبِ. والبَصَرُ: الْعِلْمُ. وبَصُرْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُهُ؛ قَالَ –تعالى– على لسان السامري: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ }(٤). وَالْبَصِيرُ: الْعَالِمُ، وَقَدْ بَصُرَ بَصارَةً. والتَّبَصُّر: التَّأَمُّل والتَّعَرُّفُ. والتَّبْصِيرُ: التَّعْرِيفُ والإِيضاح ، وتَبَصَّرَ فِي رأْيِه واسْتَبْصَرَ: تَبَيَّنَ مَا يأْتيه مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَاسْتَبْصَرَ فِي أَمره وَدِينِهِ إِذا كَانَ ذَا بَصيرة. والبَصيرة: الثَّبَاتُ فِي الدِّينِ. وبَصَّرَهُ الأَمْرَ: فَهَّمَهُ إِياه. (٥)

ولفظ (أولي الأبصار) ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات في مقام دعوتهم إلى الاعتبار –كما بينت سابقا–وورد مرة واحدة في مقام الثناء على بعض أنبياء

---

(١) سورة ق، الآية:٢٢.

(٢) سورة النجم ، الآية: ١٧.

(٣) سورة الأحقاف، من الآية:٢٦.

(٤) سورة طه، من الآية:٩٦ .

(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى: ٥٩ ، ٦٠ ، وينظر: لسان العرب لابن منظور : بصر. الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

الله(تعالى) وذلك في قوله -جل شأنه-: { وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ }[1] وفيها تضخيم وتعظيم من شأن هؤلاء الأنبياء المذكورين " فالأيدي : القوة في أمر الله، والأبصار: في دين الله، فبالبصائر يُدرك الحق ويُعرَف ، وبالقوة يُمَكَّن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه"[2]،" واليد: آلة لأكثر الأعمال، والبصر: آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد ، وعن الإدراك بالبصر .... والنفس الإنسانية لها قوتان: عاملة وعالمة، أما القوة العاملة: فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله، وأما القوة العالمة: فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف كالعبث والباطل " [3].

ومن البيِّن أنه لا يراد بأولي الأبصار في الآية السابقة حقيقتها من الجارحة المعروفة، بل يراد أن هؤلاء الأنبياء فهموا حقيقة الدعوة التي وُكِلوا بها، وأنهم كانوا أهل نظر ثاقب، وفكر سليم سديد في دعوتهم، وقرنوا ذلك بالعمل الصالح.

وبالنظر في الآيات التي قامت عليها تلك الدراسة نجد أنه لا يراد بأولي الأبصار فيها حقيقتها من الجارحة المعروفة أيضًا، فالطابع العام الذي يغلب على تلك الآيات أنها تدعو إلى التأمل والتفكر ، والتبصر في المواقف التي عرضتها ، دون النظرة السطحية الظاهرة، وهذا يعني أن أولى الأبصار المقصودين في الآيات صنف من الناس يتميز بالقدرة على النظر السليم في المواقف والأحداث مع

(١) سورة ص، الآيتان :٤٥، ٤٦.

(٢) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين ، د/ مصطفى محمد حلمي:١/٥٠، الناشر:دار الكتب العلمية – بيروت – ط١- ١٤٢٦ هـ.

(٣) مفاتيح الغيب ( التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) :٢٦/٤٠٠، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

الموازنة الدقيقة الواعية بينها وفهم حقيقتها والوقوف الدقيق على المراد منها، فمثلا في مقام دعوة أولى الأبصار إلى الاعتبار في آية غزوة بدر الكبرى {قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ...}[1] النظرة الأولى تؤكد انتصار الكفار بما يملكون من قوة وعتاد وأسباب النصر الظاهرية ، ولكن هناك قوة إلهية خارقة قلبت موازين تلك المعركة ، فكان النصر حليفا للمسلمين وهذا هو الداعي إلى الاعتبار والاتعاظ وكذلك الحال في مقام سورة الحشر – كما سيتضح أثناء الدراسة – وهذا يعني أن المطلوب ليست النظرة السطحية للأمور، بل النظرة الموضوعية السليمة التي تقف على عواقب الأمور ومآلاتها ، ومثل هؤلاء هم أولوا الأبصار.

هذا والوقوف على حقيقة أولي الأبصار في القرآن الكريم مما يدعو ويثير النفس إلى معرفة من هم أولوا الألباب، والفرق بين أولي الأبصار والألباب.

وهذا يتطلب أولًا الوقوف على معنى (الألباب)، وهي جمع لُبٌّ "ولب كل شيء: خالصُه وخيارُه، واللب: العقل ... واللبيب: العاقل "[2]."وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ لُبًّا ؛ لِأَنَّ اللُّبَّ هُوَ مَحَلُّ الْحَيَاةِ مِنَ الشَّيْءِ، وَخَاصَّتُهُ وَفَائِدَتُهُ، وَإِنَّمَا حَيَاةُ الْإِنْسَانِ الْخَاصَّةُ بِهِ هِيَ حَيَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ "[3].

---

(١) سورة آل عمران، من الآية :١٣.

(٢) لسان العرب، لابن منظور : لب ، وينظر : القاموس المحيط، للفيروزآبادى : ١٣٣/١،تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني: ٤/ ٢٤٥، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م

ويقول الراغب: " اللُّبُّ: العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كَاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء"[١].

وعلى هذا :فأولوا الألباب هم أهل العقول السليمة الذكية الفطنة التي تفهم حقيقة الشيء وتصفيه مما يحوم حوله من الشوائب والعيوب ، بخلاف أولى الأبصار فهم أهل تأمل ونظر في عواقب الأمور وفهم حقيقتها دون الوقوف على ظاهرها ؛ ولذلك نجد ذكر أولي الألباب في القرآن الكريم يرتبط غالبًا بمعان جليلة عظيمة وتقترن بها كالأمر بتقوى الله(تعالى)[٢] والدعوة إلى اتباع أحسن القول [٣]، والتذكر[٤]، والتفكر والتدبر[٥] ، كما أثنى القرآن الكريم عليهم، وبيَّن أوصافهم في سياق مطول انتهى ببيان ما أعده الله لهم من عاقبة الدار وحسن الجزاء ، وذلك في سورة الرعد [٦]، وهذا ما لم يكن لأولى الأبصار ، بل اكتفى القرآن الكريم بدعوتهم إلى الاتعاظ والاعتبار وذلك في ثلاثة مقامات، وهي التي قامت عليها الدراسة، فإلى رحاب التحليل البلاغي لهذه المقامات .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى:٤٤٩.

(٢) وذلك في آيات البقرة : (١٧٩) ، ( ١٩٧) ، والمائدة آية رقم (١٠٠) ، والطلاق آية رقم (١٠) .

(٣) وذلك في آية الزمر رقم (١٨).

(٤) وذلك في آيات : البقرة(٢٦٩) ، وآل عمران (٧)، والرعد (٩)، و ص: (٤٣)، والزمر (٩) ، (٢١) ، وغافر (٥٤).

(٥) وذلك في آيات : آل عمران : (١٩٠) ، ويوسف : (١١١) ، و ص : (٢٩).

(٦) الآيات من سورة الرعد : ١٩-٢٢ .

# المبحث الأول

# مقام الاعتبار لأولي الأبصار في سورة آل عمران في سياق غزوة بدر الكبري

١- قال – تعالى– في سورة آل عمران: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾}(١).

المقصد العام للسورة الكريمة، وعلاقة الآية بذلك المقصد:

المتأمل في جملة تلك السورة الكريمة يجد أنها " عنيت بأمرين عظيمين:

**أحدهما** – تقرير الحق في قضية العالم الكبرى، وهي مسألة الألوهية وإنزال الكتب، وما يتعلق بها من أمر الوحي والرسالة .

**والثاني** – تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق، والعمل على إدراكه والتمسك به"(٢).

ومسألة تقرير الألوهية لله وحده واجهها المشركون وأعداء الدعوة من اليهود والنصارى بكل قوة، وأمعنوا في رفضها، ودسوا المؤامرات، وأشعلوا نار الحروب، ومن ثم كان من المناسب أن تتحدث السورة الكريمة عن أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وهي غزوة بدر الكبرى، وتُذَكِّر هؤلاء الأعداء بأنهم وإن ملكوا أسباب القوة المادية التي تؤهلهم في الظاهر إلى النصر، والتي بها يتفاخرون ويستعلون على المسلمين إلا أنها ليست المقياس في تحقيق النصر في ميدان

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د/ عبد الله محمود شحاته: ٢٣/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، ١٩٨٦ م.

المعركة، فأمام أعينهم وقعت تلك الآية العجيبة، وهي انتصار المسلمين على مشركي مكة في غزوة بدر الكبرى بالرغم من الظروف العصيبة، والملابسات التي أحاطت بالمسلمين، والتي يُسْتَعْيدُ معها انتصار المسلمين عليهم، وفي هذا تثبيت للمسلمين وهم يخوضون معركتهم الكبرى وهي تقرير ألوهية الله في الأرض، وتهديد للمشركين بإعلامهم بأن مآلهم في تلك المواجهة هو الخسران، والهلاك، والبوار، وفي ذلك عبرة بالغة لأولى الأبصار.

**علاقة الآية بالسياق السابق عليها**:

الآية الكريمة وثيقة الصلة بالسياق السابق عليها؛ حيث أكد – سبحانه– قبلها أن أموال الكافرين وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئًا ولن تحقق لهم سوى الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾}[1] وأعقبت ذلك بأمر نبيه (ﷺ) بتهديد الكافرين وإنذارهم بأنهم سيُهزمون ويُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، ولما كان حال الكافرين من كثرة الأموال والأولاد ، وتوفر أسباب القوة التي تؤهلهم للنصر، فيه ما يجعلهم يستبعدون الهزيمة، ويدفعهم نحو الغرور والاعتقاد أن هذا هو سبب النصر، ومن هنا ناسب ذلك مجيء الآية الكريمة – محل الدراسة – لتوضح لهم خطأ مسلكهم، وفساد اعتقادهم، وتقيم لهم دليلًا واضحًا وتذكرهم بواقعة ملموسة مشاهدة، وهي واقعة بدر تكشف لهم في جلاء عن أن القوة المادية وحدها لا تحقق النصر، وأن مردَّ ذلك إلى تأييد الله بالنصر لمن يشاء من عباده.

وقد صيغت الآية الكريمة في نظمٍ حوى من الأسرار البلاغية ما يكشف عن خطأ اعتقادهم ويبث التهديد بالدليل العملي في قلوبهم، ويدعوهم ويدعو كل سامع

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

إلى الاعتبار والاتعاظ بما حدث في تلك الواقعة، وقبل أن أتوجه إلى رحاب التحليل البلاغي الكاشف عن ذلك، أذكر سبب نزول الآية الكريمة، فهو وثيق الصلة بتحليلها تحليلًا بلاغيًا.

**سبب النزول**:

وردت روايات عدة في سبب نزول هذه الآية الكريمة، مع الآية التي قبلها: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾}[1] من أشهرها ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار: لما أصاب رسول الله (ﷺ) قريشًا ببدر، فقدم المدينة جمع اليهود وقال: يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصة، أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله - تعالى-: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} إلى قوله: {لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}[2].

وأرى أنه لا مانع من أن تكون الآية – محل الدراسة – مطلقة في عمومها، ليست لليهود فحسب، بل لمطلق الذين كفروا، كما هو مفهوم من عموم اللفظ في

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص: ٩٨، ٩٩)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م. وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣٤٣/١، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م. وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم=تفسير العلامة أبي السعود، لـ محمد بن محمد العمادي أبو السعود: ٣٣٣/١، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

الآية السابقة عليها، والعبرة بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب، بل ليس في الآية ما يمنع أن يكون الخطاب للمسلمين، كما سيظهر من خلال التحليل البلاغي للآية الكريمة.

## التحليل البلاغي للآية الكريمة:

ذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – أن الخطاب في قوله : – تعالى–: {قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا...}. خطاب للذين كفروا، كما هو الظاهر؛ لأن المقام للمحاجَّة، فأعقب الإنذار والوعيد بإقامة الحجة، فيكون من جملة المقول، أي: قل للذين كفروا ستغلبون...، وقل: قد كان لكم آية...

كما أجاز أن يكون الخطاب للمسلمين، فيكون استئنافًا ناشئًا عن قوله: (ستغلبون)، إذ لعل كثرة المخاطبين من المشركين، أو اليهود، أو كليهما، يثير تعجب السامعين من غلبهم، فذكرهم الله بما كان يوم بدر [1].

وأرى أن الخطاب في الآية، وإن كان الظاهر أنه للمشركين، تناسبًا مع السياق؛ إلا أنه لا مانع من حمله وتوجيهه إلى المسلمين، ليس في زمن النبي (ﷺ) وفيمن نزلت الآية على مسامعهم فحسب، بل يمتد ويشمل جموع المسلمين في كل زمان ومكان؛ وذلك لأن الآية تحمل وراءها درسًا بليغًا، وتوجيهًا مهمًا، ودعوة حية قوية لجموع المسلمين في الاتعاظ بما حدث يوم بدر، وعدم الاغترار بقوة العدو المادية، وأنها ليست المقياس الوحيد في تحقيق النصر على الأعداء، وهذا الدرس لاشك أن الأمة تحتاجه في كل لحظة من لحظات حياتها.

والتأكيد بـ (قد) في صدر الآية الكريمة يدفع ما قد يطرأ على نفوس هؤلاء المشركين من استبعاد هزيمتهم مع امتلاكهم للقوة المادية التي تؤهلهم لتحقيق

(١) ينظر: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الطاهر بن عاشور: (١٧٦/٣)، دار سحنون للنشر والتوزيع، بدون.

النصر والغلبة، وهذا من طبيعة النفس البشرية عمومًا، وبخاصة مع إصرارها على الكفر ومجابهة الدعوة فلا تقبل إلا الملموس الحاضر، ولا تعترف إلا بالواقع المشاهد.

وفي هذا التأكيد – أيضًا – تمكين هذا المعنى وتقريره وغرسه في نفوس المؤمنين، ليظل معنى جليلًا له عمقه وأثره البالغ؛ إذ هو سنة الله قائمة ودائمة، ومن فصاحة التعبير بهذا الحرف (قد) في ظل هذا التوجيه أنه كما حكى الجوهري عن الخليل: " لا يؤتي بها إلا إذا كان السامع متشوقًا إلى سماعه، كقولك لمن يتشوق سماع قدوم زيد: قد قدم زيد، فإن لم يكن لم يحسن المجيء بها، بل تقول: قدم زيد "[1]، وكأن هذا الحرف وما جاء بعده كان إرواءً وغوثًا لنفوس المسلمين وما اعتراهم من قلق حين سمعوا قول اليهود للنبي (ﷺ) كما جاء في سبب النزول: " يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصة، أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس " [2]، وفيه أيضًا: غوث لكل النفوس المؤمنة المتطلعة إلى النصر في أي زمن؛ لأن الخبر الواقع بعدها ينزع عن نفوسهم الشعور بالإحباط واليأس، ويدعوهم إلى الأمل والثقة بموعود الله في النصر.

ويضاعف من دلالة (قد) على التوكيد دخولها على فعل الكون (كان) ماضيًا؛ تقريرًا للواقعة العجيبة التي تحكيها الآية الكريمة، وقطعًا بثبوتها، وهذا أوجب وآكد في وجوب الاتعاظ بها، كما أن فعل الكون مما يبقى عطاء تلك الآية على مدار كل الأزمنة، فتظل باقية في النفوس تستلهم منها العبرة والاتعاظ بدرسها البليغ.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: (٤١٧/٢)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

(٢) أسباب النزول، للواحدي، ت الحميدان (ص: ٩٩).

وقد آثر النظم الكريم تسمية تلك الواقعة (آية)، وهي في الأصل: العلامة والأمارة والمعجزة[1] دلالة على أن ما حدث من غلبة المسلمين على أعدائهم في غزوة بدر في ظل تلك الظروف التي لم تكن تُشْعِر بالنصر أو توحي به يعد أمرًا عجيبًا خارقًا للعادة لا يجري وفق المنظور البشري والعقل القاصر[2]، ومن هنا كان التعبير بتلك اللفظة دقة تعبيرية، وتناسبًا بليغًا مع المقام، وكان التعبير بها نكرة تفخيمًا وتعظيمًا لها؛ لدلالتها البالغة على قدرة الله (ﷻ) في إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، ونصرة رسوله (ﷺ).

وبالتأمل نجد النظم الكريم يعبِّر بفعل الكون (كان) بالتذكير، ولم يكن: كانت، قيل: لأن (آية) تأنيثها غير حقيقي، وقيل ردَّها الى البيان، أي قد كان لكم بيان، فذهب الى المعنى وترك اللفظ [3]، ولكن لماذا آثر النظم الكريم ذلك مع أن هذا

---

(١) ينظر : المعجم الوسيط: ١ / ٣٥. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وآخرون، الناشر: دار الدعوة.

(٢) يدل على ذلك ما روي" أن المشركين يوم بدر كانوا تسعمائة وخمسين، ومنهم أبو سفيان وأبو جهل، وقادوا مائة فرس، وكانت معهم من الإبل سبعمائة بعير، وَأَهْلُ الْخَيْلِ كُلُّهُمْ كَانُوا دَارِعِينَ وَهُمْ مِائَةُ نَفَرٍ، وَكَانَ فِي الرِّجَالِ دُرُوعٌ سِوَى ذَلِكَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ ثلاثمائة وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا بَيْنَ كُلِّ أَرْبَعَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرٌ، وَمَعَهُمْ مِنَ الدُّرُوعِ سِتَّةٌ، وَمِنَ الْخَيْلِ فَرَسَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي غَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْكُفَّارِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ آيَةً بَيِّنَةً وَمُعْجِزَةً قَاهِرَةً". تفسير الرازي أو التفسير الكبير (٧/ ١٥٦).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي: ٢٤/٤، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، وفتح القدير للشوكاني: ٣٦٨/١، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ، وفتحُ البيان في مقاصد القرآن، للقِنَّوجي: (١٩٤/٢)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، وزاد المسير=

اللفظ قد جاء التعبير به مؤنثًا لتأنيث الفاعل في مواطن أخرى في القرآن الكريم، كما في قوله – تعالى-: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}؟[1]، أرى والله أعلم: أن تذكير فعل الكون هنا مما يتناسب مع قوة وجلال وعظم تلك الآية، ولذا جاء مذكرًا لما في التذكير من معاني القوة التي لا تُلْمَح في التأنيث، ويدعم هذا الوجه أنه – سبحانه- لما أخبر عن أسوتنا في رسول الله (ﷺ) عبَّر بفعل (الكون) مذكرًا فقال: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[2]؛ إشارة بالغة إلى الفرق بين أسوتنا بإبراهيم (عليه السلام) والذين معه، وبين أسوتنا في رسول الله (ﷺ)، وتقديم (لكم)؛ لأن العبرة ليست في الآية ذاتها، وإن كانت عظيمة وبالغة، بل في الاتعاظ بها، والمخاطبون هم محل الاتعاظ، والاستفادة من وقوعها، والتقديم "أعون على إظهار الأغراض والمقاصد "[3].

وتوجيه الخطاب نحو المخاطبين (لكم) فيه ما يحرك المشاعر، ويسترعي الاهتمام، ويثير النفوس نحو الاتعاظ بتلك الآية، والشعور بجلالها وعظمتها، ومن هنا آثر النظم الكريم التعبير بحرف الظرفية(في) وجعله مدخولًا للفظ (فئتين)، وذلك على سبيل التجوز بحرف الظرفية، بجعله مدخولًا لما ليس ظرفًا حقيقة، وهذا التجوز أجراه البلاغيون إما على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف، وإما على المكنية، فعلى الاستعارة التبعية يكون القرآن الكريم شبه مطلق التمكن في الفئتين، بمطلق التمكن الظرفي، بجامع: التمكن والاستقرار في كل، فسرى التشبيه من

---

= في علم التفسير، لابن الجوزي: ٢٦٢/١. المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) علم المعاني، د/ صباح دراز: ١٨٦، مطبعة التركي – طنطا، طبعة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

الكليات إلى الجزئيات، ثم استعيرت (في) من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه على طريق الاستعارة التبعية في الحرف، والقرينة هي دخول (في) على (فئتين).

وعلى المكنية يكون القرآن شبه (فئتين) وتمكن كونهما محلًا للاعتبار وهذا الحدث العجيب غير المتوقع، بظرف محس يتمكن المظروف منه، ثم حذف المشبه به، وبقى شيء من لوازمه وهو ما يدل على الظرفية، وهذا الدال (في) دخل على المشبه وهو (فئتين) على طريق الاستعارة المكنية، وإثبات هذا اللازم تخييل، وهو قرينة المكنية.

وعلى كل: فالتجوز بالحرف (في) هنا في ظل هذا السياق يحمل مبالغة قوية في وجوب الاعتبار بتلك الآية، وأن يكون حال هاتين الفئتين بأخذ الدرس والعبرة منه في بؤرة ووعي واهتمام المخاطبين " فإن المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها، وقد لقيها ما لقيها " [1].

كما كان من عطاء هذا التجوز الاستعاري ما أشار إليه النظم الكريم من أن حال الفئتين معًا هو محل التعجب والاعتبار، وليس حال فئة واحدة منهما، ولولا قصد تلك المعاني لكان النظم (قد كان لكم آية فئتان التقتا)، أو(قد كان لكم آية فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة) هكذا مباشرة دون ذكر لهذين القيدين (في فئتين التقتا) .

وتتبدى دقة بلاغة البيان القرآني جليةً في إيثار التعبير بلفظ (فئتين) دون غيره من بدائله اللغوية مثل(جماعتين)، أو (فرقتين)، أو (طائفتين)، فلفظ (فئة)

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:١/٣٣٤ .

كما يقول الراغب: "الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد"[١].

فهذا اللفظ هو الأنسب لتصوير الصراع ورغبة كل فريق في التعاضد والالتحام والتناصر حتى إلحاق الهزيمة بالآخر، يقول ابن عطية: " والفئة: الجماعة من الناس؛ سميت بذلك لأنها يُفاء إليها أي: يرجع في وقت الشدة" [٢].

ومن هنا نجد أن هذه اللفظة لم ترد إلا في سياقات الحرب والقتال في البيان القرآني، قال – سبحانه-: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً}[٣]، وقال جل شأنه: {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا}[٤]، وقال (ﷺ): {فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ}[٥] أو نجدها في مقام الخذلان، كما في قوله – تعالى-: {فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ}[٦] أو في تصوير الخلاف القائم بين جماعة المسلمين في شأن المنافقين الذين رجعوا إلى المدينة وتركوا رسول الله(ﷺ) في غزوة أحد ، وكان المسلمون فيهم فرقتين {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}[٧].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٩٠.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي: ٤٠٦/١، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٦) سورة القصص، الآية: ٨١.

(٧) سورة النساء، الآية: ٨٨.

وقوله -سبحانه- (التقتا) في محل جر صفة لفئتين، والتعبير به مع أن الجملة التي بعده ترشد إليه وتدل عليه؛ لاستدعاء مشهد المواجهة والقتال، والتأكيد على أن تلك الآية العجيبة من واقع عايشوه بأنفسهم ورأوه بأعينهم، وهذا أدعى إلى الاعتبار به والاستفادة منه، وصياغة الفعل بصيغة الافتعال للمبالغة في شدة المواجهة والتلاحم، وإشعار بما كانت عليه نفوس المسلمين في ذلك الحين من الرغبة في عدم المواجهة {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}[1] فجاءت صيغة الفعل لتكشف عن تلك المواجهة الحقيقية ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وبعد أن أثار القرآن الكريم كوامن النفوس، وحرَّك المشاعر وهيأها للوقوف على تلك الآية العجيبة، أبان عنها تفصيلًا وتوضيحًا فقال -جل شأنه-: {فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ}[2] والجملة الكريمة جعلها الشيخ أبو السعود مستأنفة فقال: "والجملة مع ما عُطف عليها مستأنفة لتقرير ما في الفئتين من الآية" [3].

ولا أميل إلى ما ذكره الشيخ أبو السعود من حمل الجملة الكريمة على الاستئناف؛ لما فيه من تكلف وقطع لها عما هي متصلة به من حيث المعنى؛ ولذلك أميل إلى كونها بيانًا للجملة السابقة عليها، ولذا جاءت مفصولة عنها لكمال الاتصال؛ لأنها بمنزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح والتقرير، وحملها على هذا الوجه أظهر، وأنسب للمقام؛ لأن ذكر الشيء أولًا مجملًا، ثم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٣) إرشاد العقل السليم: ١/٣٣٤.

البيان عنه والإيضاح له ثانيًا له أثره البالغ في تمكين المعنى في النفوس، وتقريره في الأذهان، واستقراره في القلوب، وهذا يتناغم مع ما يرمي إليه النظم الكريم من لفت النفوس إلى أهمية الاعتبار بتلك الآية العجيبة، وأن تظل ثابتة مستقرة في وعي المخاطبين، وكل الأجيال المؤمنة بهذا الكتاب.

وتتأتَّى البلاغة القرآنية العالية في نظم الجملة الكريمة، وفي كل اللبنات المكونة لها، وكلها تتجه نحو تثبيت المعنى وتقريره، وأول ما يظهر من الخصائص البلاغية فيها أسلوب الحذف الذي بدا جليًّا في نظمها، وذلك في عدة مواطن منها:

- حذف المسند إليه، والتقدير: (إحداها فئة)، وذلك على اعتبار لفظ (فئة) خبر لمبتدأ محذوف.
- ومنها حذف المسند إليه أيضًا في قوله: (وأخرى) على اعتبارها صفة لمبتدأ محذوف، والتقدير: وفئة أخرى، وقوله: (كافرة) خبر لهذا المبتدأ المحذوف.

كما يظهر جليًا فن الاحتباك البلاغي[1] يقول أبو حيان: " أي: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأولى ما

(١) قال السيوطي: " قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: هو أَنْ يَجْتَمِعَ فِي الْكَلَامِ مُتَقَابِلَانِ فَيُحْذَفُ مِنْ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَابِلُهُ لِدَلَالَةِ الْآخَرِ.. وَمَأْخَذُ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ مِنَ الْحَبْكِ الَّذِي مَعْنَاهُ الشَّدُّ وَالْإِحْكَامُ وَتَحْسِينُ أَثَرِ الصَّنْعَةِ فِي الثَّوْبِ فَحَبْكُ الثَّوْبِ سَدُّ مَا بَيْنَ خُيُوطِهِ مِنَ الْفُرَجِ وَشَدُّهُ وَإِحْكَامُهُ بِحَيْثُ يَمْنَعُ عَنْهُ الْخَلَلَ مَعَ الْحُسْنِ وَالرَّوْنَقِ". الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: = (٣/ ٢٠٥)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤ م وينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (٢٤٣/١)، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م. "وهذا النوع من الحذف يكسب الكلام قوة وزينة، القوة من حيث استيفاء الأقسام، والزينة من حيث الحذف المتناظر " خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د / عبد العظيم المطعني: (٢/ ٧٤)، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ط أولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

أثبت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولى، فذكر في الأولى لازم الإيمان، وهو القتال في سبيل الله. وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان، وهو الكفر" [١].

وأسلوب الاحتباك هنا يشعر بطبيعة العلاقة بين الإيمان وما يدفع إليه من القتال في سبيل الله، وكأنه المحرك لذلك، وطبيعة الكفر وما يدعو إليه من القتال في سبيل الشيطان، وهذا ما أبان عنه الشيخ الشعراوي –رحمه الله– في نفحاته الربانية في تفسيره فقال: " وحين ندقق النظر في النص القرآني، نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الله ولم يذكر أنها فئة مؤمنة، وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة، وهذا يعني أنّ الفئة التي تقاتل في سبيل الله لابد أن تكون فئة مؤمنة، ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان اكتفاء بأن كفرها لابد أن يقودها إلى أن تقاتل في سبيل الشيطان" [٢].

والمهم: أن اللافت في نظم الجملة الكريمة هو أسلوب الحذف، وإسقاط هذه المحذوفات من شأنه أن يصفي العبارة، ويقوي حبكها، ويشد أسرها، ويوفر انتباه السامع ويشغل تركيزه فيما هو مهم، ومقصود من ورائها، وهذا من التناغم البين مع كونها آية عجيبة ، تستحق التأمل والتوقف عندها، واستخلاص العبر والعظات من ورائها، هذا بالإضافة إلى ما في أسلوب الحذف عمومًا من " إمتاع لأهل الفكر

(١) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٤٥)، وينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: ١٨/٢ ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٢) تفسير الشعراوي: (٢/ ١٢٩٨)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م.

بالاستنباط، والاستخراج الفكري اعتمادًا على دلالات القرائن " [1]. وهذا من البلاغة العالية بمكان.

وتنكير (فئة) للتعظيم والتفخيم من شأنها؛ وذلك لنبل غايتها، وسمو مقصدها بخلاف الفئة الأخرى التي حذفت من النظم، وبقيت الصفة الدالة عليها؛ إشارة إلى الفرق العظيم بين الفئتين، وإشعارًا بعدم أهليتهم لاستحقاق الوصف بلفظ(فئة) والتي توحي بالتناصر ووحدة الهدف والغاية.

وجملة(تقاتل في سبيل الله)" في محل الرفع على أنه صفة (فئة) كأنه قيل (فئة مؤمنة)، ولكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان ما يليق بالمقام، مدحًا لهم، واعتدادًا بقتالهم، وإيذانًا بأنه المدار في تحقيق الآية وهي رؤية القليل كثيرًا" [2].

وقوله: (في سبيل الله) حال يكشف عن سبب النصر، والتأييد من الله (ﷻ) وينفي عنهم التعلق بأي شائبة من شوائب الدنيا أو بشيء من مغرياتها، فقد كانت نيتهم خالصة، وغايتهم واضحة محددة، وهي نصرة الحق والذود عنه، وابتغاء مرضاته – سبحانه –.

كما يلحظ أن النظم الكريم حذف هدف الفئة الثانية وغايتهم، وهي القتال في سبيل الشيطان، وذلك " إسقاطًا لقتالهم عن درجة الاعتبار، وإيذانًا بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة " [3].

---

(١) البلاغة العربية أسسها علومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، عبد الرحمن حبنكة الميداني: (١/٣٤٥)، الطبعة: الأولى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١/٣٣٤).

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١/٣٣٤)، وينظر: تفسير الألوسي:(٢/٩٢) .

ووصف هذه الفئة بالكفر بصيغة اسم الفاعل (كافرة) يؤذن بثباتهم على الكفر، وإصرارهم على هذا المسلك الشائن وعدم عدولهم عنه، بخلاف وصف الفئة المؤمنة الذي جاء في ثوب الفعلية (تقاتل في سبيل الله) دلالة على تجدد الهدف واستمرار تلك الغاية النبيلة، وعدم الحيد عنها.

هذا بالإضافة إلى ما حققه أسلوب المقابلة بين الجملتين (فئة تقاتل في سبيل الله) و(أخرى كافرة) من الكشف في وضوح عن هدف كل فئة وبيان غايته، ولا ريب في أن "جمع المعاني المتضادة المتقابلة يحرك وعي المتلقي، ويجعله في يقظة شعورية لفهم المضمون المعبَّر عنه من خلال الصيغ المثيرة للانتباه، الداعية على التأمل " [1].

وجملة {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ}[2] تعددت فيها القيود، فقوله: (يرونهم) نعت لـ (فئة تقاتل في سبيل الله)، أو نعت للفئة الأخرى، وقوله: (مثليهم) حال، وقوله: (رأي العين) مفعول مطلق مؤكد لعامله، وهذه القيود بجملتها تمثل أساس تلك الآية العجيبة، وتنطق بمضمونها، وتصور حال وهيئة كلتا الفئتين المتلاقيتين تصويرًا بارعًا.

هذا وللسادة المفسرين عدة أقوال في مرجع الضمائر الثلاثة التي اشتملت عليها تلك الجملة الكريمة يترتب على أساسها تحديد من الرائي، ومن المرئي، وكيف يكون المعنى المترتب على كل قول؟.

يقول الزمخشري: " يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين. أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، أراهم اللَّه إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من اللَّه كما أمدّهم

(١) دراسات في المعاني والبديع، د/ عبد الفتاح عثمان: ٢١٢، مكتبة الشباب – القاهرة.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

بالملائكة. والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم، بالتاء أي ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال {وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ}[1]. قلت: قللوا أوّلا في أعينهم حتى اجترءوا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين... وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله – تعالى–: {فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ}[2] بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله – تعالى– {إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ}[3]، ولذلك وصف ضعفهم بالقلة؛ لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف"[4].

وأميل إلى ما ذكره أحد الباحثين من أن: " الذي تستشعره من تصورات الموقف أن الضمير في قوله – تعالى – يرونهم دائر بين الفئتين، فقد رأت جماعة

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٤) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٤١) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ، وينظر: البحر المحيط: ٤٥/٣، و لباب =التأويل في معاني التنزيل، للخازن: ٢٢٩/١، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ، و الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي: ٤٦/٣، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي : ٧/٢، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

المسلمين جيش الكفار على هيئة لا تسمح لهم بالنصر، ورأت جماعة الكافرين جيش المسلمين على هيئة تسمح لهم بالنصر، يؤيد هذا الآيتان ٤٣-٤٤ في سورة الأنفال: { إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ }[1] وبهذا تلتئم الآيات في كلتا السورتين، آل عمران، والأنفال، وتفسِّر كلتاهما الأخرى " [2].

والمهم هو ما ترتب على هذه الرؤية من تأييد الله (ﷻ) للقلة القليلة المسلمة في غزوة بدر، وتدبير النصر لها مع ضعفها وقلة مددها ووجودهم في ظروف يُستبعد معها النصر والغلبة على أعدائهم مع توفر كل مقومات النصر لهؤلاء الأعداء، وكان ذلك آية عجيبة لكلا الفريقين.

والتعبير بالفعل المضارع (يرونهم) يستحضر تلك الواقعة أمام أعينهم، ويجعلها شاخصة أمام أبصارهم، وفي هذا مزيد من الاعتبار والاتعاظ، وهو الغرض الأهم الذي تقصده الآية الكريمة، وكان مقتضى الظاهر أن يعبَّر بالفعل الماضي ( رأتهم مثليهم رأي العين) تناسبًا مع مُضِيِّ الواقعة وحدوثها، ولكن (فرق بين المعنى الذي تأخذه من لفظٍ تسمعه الآذان، والمعنى الذي تأخذه من صورة تراها العيون " [3].

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٢) تفسير الطيب من القول، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن، ١/ ١٨٨، ١٨٩، د. رؤوف شلبي، دار الأنصار بالقاهرة.

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى: ١٠٧، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

وقولـه: (رأي العـين) قيـد يؤكـد أنهـا رؤيـة بصـرية، ويـدفع احتمـال التـوهم والتخييل، يقول الزمخشري: " يعني رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات "(١).

ولمـا كـان مـا حـدث تأييـدًا للمسـلمين أتبـع – سـبحانه – ذلـك بقولـه: ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(٢)، وهي جملة مستأنفة تعطي المعنى طابع العموم، وتنقله من دائرة واقعة بدر المحدودة بزمانها إلى رحابة الزمن وامتداده، وقد جاءت تلك الجملة الكريمة في نظم بالغ من التقرير والوكادة؛ حيث ساقها – سبحانه – في ثوب الجملة الاسمية، التي هي من عناصر القوة في التركيب؛ وذلك لدلالتها على معنى الثبوت والدوام، فتفيد إثبات وعد الله بالنصرة والغلبة، وأن هذا الوعد سنة ثابتة قائمة، دون توقف لمن يشاء من عباده في أي زمن.

وإسناد التأييد إلى اسم الجلالة الذي هو أهيب أسمائه – سبحانه – إعلاء لصوت الألوهية القادر وحده على تحقيق نصرة عباده، دون أي اعتداد بأسباب النصر المادية الواقعية، مع أنها مطلوبة، وحثنا الدين على تحصيلها، ولكن لما كان المقام في بيان نصرة الله للفئة القليلة في العدد والعتاد، وأن ذلك كان آية ومعجزة، اقتضى ذلك إسناد التأييد بالنصر إليه وحده؛ إيذانًا بقدرته الغالبة وسلطانه القاهر الذي تعجز أمامه كل القوى.

يضاف إلى اسمية الجملة من عناصر التوكيد: تقديم المسند إليه (الله) على خبره الفعلي، مما يقرر المعنى ويؤكده، وذلك لتكرار الإسناد، حيث أسند التأييد مرة لاسم الجلالة، ومرة أخرى للضمير العائد عليه –سبحانه– في الفعل (يؤيد)، وهذا

(١) الكشاف: ١/٣٠١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

التكرار هو منشأ التوكيد، ونجد الإمام عبد القاهر يكشف عن بلاغة هذا الأسلوب بقوله: " لا يُؤتى بالاسم مُعَرَّى منَ العوامل إلاَّ لحديثٍ قد نُويَ إسنادُه إليه، وإذا كان كذلك، فإن قلت: "عبد الله"، فقد أشعرت قبله بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه، فإذا جئتَ بالحديث فقلت مثلاً: "قامَ" أو قلتَ: "خرجَ"، أو قلتَ: "قَدِمَ" فقد عُلم ما جئتَ به وقد وطَّأْتَ له وقدَّمتَ الإعلام فيه، فدخلَ على القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأتقى للشُّبهة، وأَمنعُ للشكَّ، وأدخلُ في التَّحقيق. وجملةُ الأمر أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له؛ لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار" [1].

وإذا كانت الجملة باسميتها تعطي معنى الثبوت والدوام، فقد جاء الفعل (يؤيد) في ثوب المضارعة ليعطي معنى التجدد والاستمرارية في تأييد الله (ﷻ)، وهذا من شأنه أن يكشف عن طلاقة قدرة الله (ﷻ) في تأييد من يشاء من عباده، وأن يبث الثقة في نفوس المؤمنين على مدار الأزمنة كلها.

كما أن التعبير باسم الجلالة في هذا السياق من شأنه أن يبعث في نفوس المؤمنين الثقة والقوة، والشعور باليقين والطمأنينة بأن هناك قوة إلهية خارقة تساندها، هذه القوة لا تضاهيها قوة بشرية مهما كانت، وهذا من شأنه أن ينزع من نفوسها أيَّة شائبة من شوائب التأثر بقوة العدو المادية وأسبابه الظاهرة؛ لأنها

(١) دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني: (١٣٢) ، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

تشعر بأن معها القوة التي لا تهزم، والمدد الذي لا ينفذ، والمعين الذي لا ينضب أبدًا.

والتعبير بالفعل (يؤيد) له دلالته وعطاؤه في هذا السياق، والمقام أدعى إلى التعبير بالتأييد بالنصر، وليس إثبات النصر ذاته، فيقال: والله ينصر من يشاء؛ لأن ما وقع في غزوة بدر من رؤية القليل كثيرًا، وتمكين الفئة الضعيفة التي لا تملك أسباب النصر هو في حقيقته تأييد بالنصر، ويتطلب التعبير بالفعل (يؤيد) الناطق بالعون، والقوة، والمدد، والنصرة، والأيْدُ: كما يقول الراغب: " القوة الشديدة، وقال – تعالى–: {وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ}[1] أي يكثر تأييده.... وقوله (ﷻ): {وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ}[2] لا يثقله، وأصله من الأود آد يئود أودًا وإيادًا إذا أثقله " [3].

وتقييد التأييد (بنصره) له دلالته، إذ كان من الممكن أن يكون النظم: والله يؤيد من يشاء، وهذا تأييد بالنصر لا محالة، ولكن ذكر هذا القيد تأكيد على نفي أي اعتداد بأية قوة مادية، وإضافة النصر إليه – سبحانه – دلالة على اختصاص النصر به وحده –سبحانه – وفيه بث للطمأنينة في نفوس المؤمنين وهم يواجهون أعداء الدين في أي زمن؛ ليقينهم بأن النصر منه – سبحانه – وحده، ومن هنا عدل الأسلوب من الخطاب المباشر : ( والله يؤيدكم بالنصر) إلى معنى العموم الذي أفاده اسم الموصول (مَنْ) ذات الدلالة المطلقة الواسعة؛ ليمتد وعد الله بالتأييد لمن يشاء من المسلمين في أي زمان ومكان.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) المفردات: ٤٣ بتصرف.

والتعبير بفعل المشيئة (يشاء) دلالة على أن عملية التأييد بالنصر ترجع إلى مشيئته وحده وإرادته، فلا معقب لحكمه، ولا راد لمشيئته وقضائه.

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}، وقد جاءت الجملة الكريمة مفصولة عما قبلها؛ لأن ما سبقها يحكي خبرًا غريبًا قد تستبعده بعض العقول القاصرة التي تنظر إلى مجرد أسباب القوة الظاهرة، معتقدة أنها وحدها تهيئ للنصر وتجلب الفوز والغلبة، كل هذا أثار في النفس سؤالًا مفاده، ولم كانت تلك الآية العجيبة، ولم تجر الأمور على ما يقتضيه ظاهر العقل، ويتطلبه واقع الأمر؟

فجاءت تلك الجملة الأخيرة مجيبة عن هذا السؤال المقدر في النفس، ومن ثم جاءت مفصولة عن سابقها لشبه كمال الاتصال، يقول الخطيب: " وقال السكاكي: وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك" (١).

والغرض البلاغي من وراء هذا الفصل هو تنبيه السامعين، ولفت أذهانهم، وشحذ أنظارهم نحو أخذ العبرة مما حدث من تلك الآية العجيبة، فلا يعتدوا بأسباب النصر المادية وحدها، بل يجعلوا إيمانهم بالله، وحسن توكلهم عليه، وثقتهم بنصره وتأييده أول أسلحتهم في مواجهة أعدائهم.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: (٣/ ١١٩)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة. وينظر: مفتاح العلوم للسكاكي: ١٤٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

وقد ساق الحق – سبحانه – هذه الجملة الكريمة مؤكدة بعديد من المؤكدات؛ حيث جاءت في ثوب الاسمية، والتأكيد بـ (إن)، واللام المقترنة باسمها (لعبرة)، وهذه المؤكدات الثلاثة، تجعل الخبر بها كأنه كُرِّر ثلاث مرات، والغرض البلاغي من ورائها هو تقرير مضمونها؛ وتمكينه في النفوس؛ لجلال المعنى الذي تحمله وعظمته.

يضاف إلى ذلك: ما أضافه التعبير بـ (إن) في بدئها من قوة الربط، وشدة الإحكام والسبك بين الجملة الكريمة وما قبلها، وهذه المعاني لا نجدها إذا جاء بدونها أو جاء الربط بغير (إن) من أدوات الربط بين جمل الكلام ومقاطعه فقيل مثلا: وفي ذلك عبرة لأولى الأبصار، أو ففي ذلك...، واقرأ الآية هكذا تشعر بتغير بيِّن في نظم الكلام، يذهب حسنه ورونقه وبهاءه، ويفكِّك أوصاله، ويُذهب قوته ولحمته وترابطه، وتدرك جيدا أن غير (إن) من أدوات الربط لا يمكن أبدا أن يقوم بدورها، ولا يضاهيها أبدا في الحسن والربط والتآلف والانسجام في النظم، إن الربط بـ (إنَّ) في هذا السياق حقق وأكد كل هذه المعاني، وأمسك وحدة التعبير تركيبا ومعنى، ودلت (إن) بجرسها وقوتها وتأكيدها وتعليلها على أنها أشد تناسقًا مع السياق، والأكثر سبكًا وتناسبًا وتلاؤما مع التعبير، ووصلا لأجزاء العبارة [(١)].

كما أن القارئ للآية الكريمة يستشعر منذ بدئها أن مضمونها يهيئ ويمهد لتلك الفاصلة، وأنها جاءت نتيجة لما قبلها، وأنها الثمرة المرجوة من وراء الإخبار بتلك الآية العجيبة، وكأنها تأمر أمرًا مباشرًا بالاعتبار بها، وإن جاءت الفاصلة في ثوب الخبر.

(١) ينظر:(إن) الرابطة وبلاغة موقعها في النظم القرآني، د. محمود عبد الله محمد صيام: ٢٧٥١، بحث منشور في مجلة الدراية، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق، العدد الثاني عشر، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م.

والإشارة في (ذلك): "على ما ذُكِر من رؤية القليل كثيرًا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة، على الكثير شاكي السلاح " [1].

وقد جاء اسم الإشارة بلام البعد؛ ليشير إلى تعظيم وتفخيم تلك الآية، وتقديم المتعلق (في ذلك) فيه تنبيه إلى أهمية تلك الآية، ووجوب الاعتبار بها وأخذ أبلغ الدروس من ورائها، والتعبير بحرف الظرفية (في) وجعله مدخولا لاسم الإشارة، دون أن يكون النظم: إن ذلك لعبرة، ليبين انبثاق العبرة من تلك الآية؛ وإيذانا بأنها بلغت الغاية في العجب، ومحلا للتأمل ووجوب الاعتبار بها.

وجاء المسند إليه منكرًا (لعبرة)؛ ليفيد تعظيم تلك العبرة، والإشارة إلى أنها عبرة بالغة واضحة لا مجال معها للشك أو التردد؛ لأنها نتيجة لشيء حسي ملموس، وواقع مشاهد معاين.

وتقييد الاعتبار بـ (أولي الأبصار) دون المخاطبين وحدهم، أي: (لعبرة لكم)، إشعارًا بأن الذي حدث أمر عجيب عظيم، لا يَعْتَبِرُ به ويستفيد منه إلا أهل البصائر الواعية، والمدارك السليمة، والعقول الفطنة التي تدرك الأمور على وجهها الصحيح، وتعي سنن الله الجارية في نصرة عباده المؤمنين.

ووراء هذا التقييد تعريض بفساد مسلك اليهود الذين نزلت فيهم الآية الذين لا يعتدون إلا بما في أيديهم من مظاهر القوة المادية من الأموال والعتاد، واعتقادهم أنها وحدها سبب النصر والفوز، هذا بالإضافة إلى ما في التعبير في الآية الكريمة من التآلف والترابط الذي أضفاه حسن الائتلاف ومراعاة النظير في التعبير بلفظ (آية) في بدئها، ثم التعبير بلفظ (عبرة) في ختامها، وما وراء ذلك من الدلالة على أن ما حدث في غزوة بدر من الأحداث فيه العظات اللافتة، والأحداث العجيبة التي لا يعيها إلا أصحاب الأبصار الواعية، كما كان لمراعاة النظير بين ألفاظ (يرونهم-

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ٣٣٦).

رأي- العين- الأبصار) أثره البالغ في تحقيق تلك الرؤية والتأكيد على أنها كانت رؤيا حقيقية واقعية .

وبالتأمل في نظم الآية عموما نجد كل لفظة تنطق بدقتها، وكل جملة تفوح ببلاغتها، وقد تآزرت مفرداتها وجملها في إبراز المعنى وتصويره في نظم بديع، ونسج متماسك مترابط متلاحم يشد بعضه بعضًا، وتأخذ فيه كل لفظة بحجز أختها، وصولًا إلى أخذ العبرة والعظة من تلك الآية العجيبة، وتأكيدًا على أن قوة الله وتأييده هي الأساس الأول في تحقيق النصر؛ لأنها فوق كل القوى بل تنعدم معها كل القوى، ولا يحتاج الأمر سوى بصائر تتأمل، وعقول تعي وتفكر، وقلوب تفقه وتتدبر.

# المبحث الثاني

# مقام الاعتبار لأولي الأبصار في سورة الحشر في سياق جلاء يهود بني النضير عن المدينة

قال – تعالى– في سورة الحشر: { هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ }(١).

## قصة الحادث الذي نزلت فيه السورة:

تحكي السورة الكريمة قصة إخراج بني النضير من المدينة، وتتطلب دراسة الآية دراسة بلاغية عرض تلك القصة التي تشتمل على هذا الحادث الذي اقتضى نزولها من رب العالمين – سبحانه – وذلك مما يكشف عن مقام الآية، والدلالات البلاغية التي وراء نظم مفرداتها وجملها؛ ولذا سأذكره بشيء من الإيجاز:

ذكر عدد من المفسرين وأهل السير أن النبي(ﷺ) لما قدم المدينة صالح بني النضير على ألا يكونوا معه ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة لا ترد له راية، ثم توالت الأحداث، وكانت غزوة أحد التي هزم فيها جيش المسلمين، وكان لهذا أثر عميق في نفوس المنافقين واليهود وقبائل العرب، مما كان سببًا في حوادث تتابعت على المسلمين في بئر معونة، ويوم الرجيع، ووجد المنافقون واليهود مما أصاب المسلمين في هذين الحادثين، وفي غزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من محمد وأصحابه، وأضعف في نفوسهم

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

هيبته، وفكر النبي (ﷺ) كثيرا في هذا الأمر وعمل على تقوية جبهة المدينة من ناحيتهم، ورأى من الحكمة السياسية أن يستطلع نوايا اليهود، فذهب يومًا إلى بني النضير يسألهم المعونة في دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين خطأ، وهم من بني عامر حلفائهم، ذهب إليهم في عشرة من أصحابه، فلما ذكر لهم ما جاء من أجله أظهروا الغبطة والسرور، بينما كانوا يدبرون أمرًا لاغتياله (ﷺ)، فقال: أحدهم إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . وكان (ﷺ) جالسًا بجوار جدار من بيوتهم . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟، فقال عمرو بن جحش ابن كعب: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه (ﷺ) صخرة، فألهم الله نبيه (ﷺ) بذلك فقام كأنما ليقضي أمرًا، وخرج من المدينة فاستبطأه أصحابه فسألوا عنه، فعلموا أنه قصد المدينة ودخل المسجد، فذكر لهم ما رآه من اليهود ومن اعتزامهم الغدر به، وأمرهم بالتهيؤ لحرب بني النضير، وتجهز (ﷺ) وحاصر محلهم، وأمهلهم ثلاثا، وقيل عشرًا، ليفارقوا جواره ويجلوا عن المدينة على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم، ولكن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي سلول رأس النفاق أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة، وفي هذا يقول القرآن: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾}[1] ، فتحصن اليهود في المدينة وحاصرهم رسول الله (ﷺ) ستًا وعشرين ليلة، فلما يئس اليهود من مناصرة المنافقين لهم، ألقى الله الرعب في قلوبهم فتفاوضوا مع النبي (ﷺ) على أن يخرجوا من المدينة ولهم ما حملت إبلهم من أموالهم إلا السلاح، فأجابهم الرسول (ﷺ) إلى ذلك، وكانوا قبل إجلائهم

(١) سورة الحشر، الآية: ١١.

يخربون بيوتهم فيقلعون العُمد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران؛ لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم عليهم[1].

**علاقة الآية بمطلع السورة الكريمة:**

الآية الكريمة من سورة الحشر، وتسمى بسورة بني النضير [2]، لاشتمالها على قصة إجلاء بني النضير عن المدينة، وقد جاءت ثانية آيات السورة الكريمة، التي افتتحت بالثناء على الله (ﷻ) وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وكماله من جميع المخلوقات والكائنات، وبيان أنه – سبحانه – العزيز الذي لا يغلبه شيء، والحكيم

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي (ص: ٤١٦)، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي(٨/ ٧٠)، المحقق: حققه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ، وينظر : الدرر البهية من سيرة خير البرية (ﷺ)، د. محمد الطيب الحضري وآخر : ١٩٥ – ١٩٨ ، دار الأزهر للطباعة ٢٠٠٨-٢٠٠٩ م ، وينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب :٣٥١٩/٦، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: الثانية عشر – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م . وينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٣٢٩/٣ ، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

(٢) ففي البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الحَشْرِ، قَالَ: «قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ». ينظر: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه = صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب حديث بني النضير صحيح البخاري ، رقم: ٤٠٢٩ ، (٥/ ٨٨) ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

في كل أقواله وأفعاله {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[1] وبعد ذلك جاءت الآية الكريمة محل الدراسة، وهي وثيقة الصلة بمطلع السورة الكريمة، وكان التمهيد لها بهذا المطلع في غاية الحسن والتناسب، وعنوانًا لما هو أجل وأسمى مما نطلق عليه براعة الاستهلال، وتمهيدًا جيدًا لسرد أحداث القصة التي اشتملت عليها الآية، فهي تتضمن بيان نصرة الله (ﷻ) للمؤمنين بإخراج طائفة من يهود المدينة وطردهم خارجها، هذه الطائفة لم يتوقع المؤمنون أبدًا خروجهم من المدينة، وهم لم يتوقعوا أيضًا ذلك أبدًا بتلك الطريقة العجيبة واللافتة، التي سردتها الآية الكريمة، مما يتطلب الثناء على الله (ﷻ) بالحمد والتوجه إليه بالشكر، كما أنها وثيقة الصلة بفاصلة الآية الكريمة السابقة عليها {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فهي: " بيان لبعض آثار عزته – تعالى – وأحكام حكمته، إثر وصفه – تعالى – بالعزة القاهرة، والحكمة الباهرة على الإطلاق "[2].

## التحليل البلاغي:

تضمنت الآية الكريمة صورة من صور الإخراج العجيب من المدينة لفئة من اليهود، وهم بنو النضير، وكان هذا أول إخراج لطائفة من طوائف اليهود، وقد تم بصورة داعية إلى التأمل والاعتبار لكل ذوي الأبصار، والآية الكريمة "تذكير بنعمة الله على المسلمين، وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك"[3].

وقد جاءت مفصولة عن سابقتها، وذلك لكمال الاتصال؛ لأنها بيان وتفصيل لما تضمنته الآية فاتحة السورة من الثناء على الله (ﷻ)، ووصفه بالعزة والحكمة،

(١) سورة الحشر، الآية: ١.

(٢) تفسير أبي السعود: ٥/٧٠١.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٨/٦٥ .

فهذا الإخراج العجيب ما هو إلا آية تدل على عزته وحكمته – سبحانه– فيما يشاء، فهو القادر على سحق أعدائه، ونصرة أوليائه، ولا يخرج شيء في الوجود عن منافذ عزته وحكمته.

ولذلك نجد النظم الكريم يسند هذا الإخراج العجيب لهؤلاء اليهود إليه – سبحانه– وحده دون اعتداد بدور المسلمين حين حاصروهم في ديارهم، وذلك على سبيل القصر الحقيقي القائم على المبالغة، وطريق هذا القصر تعريف الطرفين، حيث عُرِّف المسند إليه بضمير الغائب (هو)، وعرف لفظ المسند بالاسم الموصول (الذي)، ووراء هذا القصر إشعار بأنه – سبحانه – السبب الحقيقي وراء هذا الإخراج، وذلك بما قذفه في قلوبهم من الرعب، وفيه دلالة أيضًا: بأنه كان وفق مشيئته وإرادته وحده، وأن قوة إلهية خارقة لا يستطيعها غيره – سبحانه –كانت وراء هذا الإخراج، وهذه المعاني لا نجدها لو أسقطنا التعبير باسم الموصول (الذي)، وقلنا: هو أخرج..؛ وذلك لأن الاسم الموصول هنا يشير إلى "أن تلك القصة اللافتة والتي جذبت أنظاركم إلى محيط النظر فيها، إنما فاعلها هو الله، ولو حذفت الموصول في ذلك، ونقلت الجملة من وضعها أي كونها صلة لها هذه الخصوصية إلى أن تكون خبرًا فحسب لذهب المعنى" [(١)].

وقد وصف – سبحانه– هؤلاء اليهود بوصفين دقيقين (كفروا من أهل الكتاب) وفي هذا تشنيع عليهم، ومذمة بالغة لهم؛ حيث جمعوا بين رذيلتي الكفر، ورذيلة كونهم من أهل الكتاب مع عدم عملهم بما جاء في هذا الكتاب من الإيمان به (ﷺ)، حيث أخبرهم بصدقه، وأنه النبي الخاتم الذي جاء مصدقا لنبيهم موسى (عليه السلام).

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د / محمد محمد أبو موسى: ٣٠٥، مكتبة وهبة، ط خامسة، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

وفي وصفهم بكونهم (من أهل الكتاب) في هذا السياق تعريض بحمقهم وجهالتهم؛ إذ لو انصاعوا لما جاء في هذا الكتاب وأذعنوا له، لما دفعهم كبرهم وغرورهم إلى العناد ومجابهة الدعوة، وبذل كل السبل في النيل منها.

كما أن هذا القيد (من أهل الكتاب) الواقع حالا من (الذين كفروا) فيه تحديد دقيق للمعنى، وتحرير للمراد، واحتراس بليغ " لئلا يظن أن المراد بـ (الذين كفروا) المشركون بمكة، أو بقية المشركين بالمدينة " [1].

وقوله: (من ديارهم) متعلق بـ (أخرج) وهو قيد يشعر باقتلاع جذورهم من المدينة؛ لأن الديار يلمح في دلالتها أنها محل النشأة، والبقاء، والاستقرار، يقول الراغب: " تسمّى البلدة دارا، والصّقع دارا، والدّنيا كما هي دارا، والدّار الدّنيا، والدّار الآخرة، إشارة إلى المقرّين في النّشأة الأولى، والنّشأة الأخرى" [2].

كما أن الإخراج من الديار فيه معاني الخزي، والمذلة، والهوان، وهذه المعاني تصاحب لفظ ( الديار) في أغلب مقاماتها في القرآن الكريم، قال – تعالى–: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ}[3]. وفي مقام الشعور بالاستضعاف على لسان أهل الحق{وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا }[4]، وقوله – سبحانه–: { ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ }[5]، ولذلك نجد تلك المغايرة اللفظية

(١) التحرير والتنوير: ٢٨/٦٥ .

(٢) المفردات : ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية:٢٤٦

(٥) سورة الحج، الآية: ٤٠.

من التعبير بالإخراج من(البيت) في مقام الامتنان على النبي (ﷺ) بالنصرة والتأييد في حادث الهجرة، فقال – جل شأنه {كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ}[1].

واللام في قوله:{لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ} " تتعلق بأخرج، وهي اللام في قوله – تعالى–: {يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي}[2]، وقولك: جئته لوقت كذا، والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر، ومعنى أوّل الحشر: أن هذا أوّل حشرهم إلى الشأم، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط، وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو هذا أوّل حشرهم، وآخر حشرهم: إجلاء (عمر) إياهم من خيبر إلى الشام" [3].

وقد دفع الشيخ الطاهر بن عاشور أن يكون المراد بالحشر هنا " حشر يوم القيامة؛ إذ لا مناسبة له هنا ولا يلائم ذكر لفظ (أول)؛ لأن أول كل شيء إنما يكون متحد النوع مع ما أضيف هو إليه " [4].

وفي تقييد هذا الإخراج بأنه أول الحشر: " إيذان بأن حشرهم يتعاقب حتى يكمل إخراج جميع اليهود، وذلك ما أوصى به النبي (ﷺ) قبل وفاته، إذ قال لا يبقى دينان في جزيرة العرب، وقد أنفذه عمر بن الخطاب حين أجلى اليهود من جميع بلاد العرب، وقيل: وصف الحشر بالأول لأنه أول جلاء أصاب بني النضير" [5].

وعلى هذا فأل في (الحشر) للعهد الذهني؛ لأنه معلوم، وسمي هذا الإجلاء حشرًا؛ " لأنه أشبه بالحشر الموعود يوم القيامة؛ حيث وقع عن قهر ولم يقع عن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٤٩٩).

(٤) التحرير والتنوير : ٦٨/٢٨.

(٥) التحرير والتنوير : ٦٩/٢٨.

رغبة منهم... ثم إنه كان إجلاء عاما لم يدع أحدًا منهم كما لم يدع حشر يوم القيامة أحدًا ممن في القبور... ثم إنه من جهة ثالثة كان جماعيًا فوريًا وليس جماعة جماعة، وزمنًا زمنًا " [1]، والكلمة ذاتها فيها معاني القهر والقسر، يقول الراغب: " الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها"[2].

ولما أسند – سبحانه – الإخراج لنفسه دون اعتداد بما كان من دور المؤمنين في إخراج هؤلاء اليهود أكد ذلك بجملة:" ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله "، ولذا جاءت مفصولة عن سابقتها لكمال الاتصال، وفي التعبير بها وما فيها من إقبال من الله (ﷻ) عليهم بالخطاب المباشر على المؤمنين مزيد امتنان عليهم، وفيه إجلال لنفوسهم، وإعلاء لقدرهم عند الله(ﷻ).

وقد جاء طباق السلب بين: (ما ظننتم وظنوا) كاشفا عن حال الفريقين في عدم توقع أحد منهما لهذا الخروج، بل واستبعاده تمامًا، والتعبير بفعل (الظن) في جانب كلا الفريقين يكشف عن خوالج النفوس، والملابسات النفسية والشعورية التي كانت تعتري كلا منهما، وتتلبس بهما، فالظن كما يقول الراغب: " اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم، ومتى قوي أو تصوّر معه تصوّر القويّ استعمل معه (أنّ) المشدّدة، و(أن) المخفّفة منها" [3].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب: ٨٤٧/١٤، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) المفردات : ١٢٧.

(٣) المفردات : ٣٢٠.

ونفي مظنة الخروج لبني النضير من جانب المؤمنين " لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم، وكثرة عددهم وعدتهم " (١).

والمتأمل في النظم يجد أنه لم يصرح بسبب نفي الظن في جانب المؤمنين، بل اقتصر على نفي ظنهم في الخروج فحسب، وفي جانب اليهود لم يصرح بنفي مظنة الخروج، وإلا لقيل: وظنوا أنهم لن يخرجوا، بل ذكر النظم دليل ذلك عندهم؛ وذلك لشدة اعتدادهم بقوة ومنعة حصونهم واعتقادهم البالغ في قوة سببيتها، والتي يستبعد معها تمامًا عملية الخروج منها، وقد جاء النظم الكريم معبرًا، وفي غاية الدقة عما يختلج نفوسهم تجاه تلك الحصون، فلم يكن: وظنوا أن حصونهم تمنعهم، أو مانعتهم، وقد أشار الشيخ الزمخشري بحسه البلاغي الرائع، واستنباطاته الدقيقة إلى اللفتة البلاغية وراء تلك المغايرة الأسلوبية فقال: " فإن قلت: أي فرق بين قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرَّض لهم، أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم" (٢).

أضف إلى ذلك: هذا التناغم بين الجرس الصوتي المنبعث وراء الحروف والكلمات الذي تجسَّد في شدة النون في (أنَّ)، وإدغام المثلين في (أنهم مانعتهم) وبين ما يختلج نفوسهم من شدة الاعتداد بقوة تلك الحصون واعتقادهم البالغ في منعتها.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣٦٥/٤).

(٢) السابق: (٣٦٦/٤)، وينظر : تفسير أبي السعود : /٧٠٢٥ ، وينظر: التحرير والتنوير ٢٨/٦٩، ٧٠ .

واقرأ بنفسك الجملة القرآنية وكررها على لسانك، ثم اقرأ الجملة الأخرى ( وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ) ستدرك الفرق جيدًا، مما يجعلك تستشعر بون ما بين التعبيرين؛ وما ذلك إلا " لأن الأصوات تابعة للمعاني فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت " (١).

وقد فطن علماؤنا القدامى إلى طبيعة العلاقة القائمة بين الإيقاع الصوتي للكلمة وأثره الدلالي، وقد أكد تلك العلاقة منذ القدم ابن جني بقوله: " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره " (٢).

وهذا يؤكد أن " للإيقاع الصوتي المؤثر دلالات بلاغية لا تقل في أهميتها عن دلالة الألفاظ، وتزيد أهمية الإيقاع الصوتي إذا تطابقت دلالاتها مع دلالات الألفاظ أوْ وَسعتها " (٣).

كما يلحظ هذا التغاير في بناء الجملة المعبرة عن حال كل فريق، ففي جانب المؤمنين جاء التعبير بالمصدر المؤول من أن والفعل (أن يخرجوا) ليمتد نفي الظن إلى زمن المستقبل، مما يكشف عن اعتقاد المسلمين في استبعاد خروجهم في أي

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني : ٢/٢١٠ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

(٢) الخصائص، لابن جني: (٢/ ١٥٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

(٣) روافد البلاغة (بحث في أصول التفكير البلاغي ) ، د/ سمير إستيتيه : ٢٧٦ ، مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، عدد ٦ ، رجب ١٤٢٢ هـ – سبتمبر ٢٠٠١ م .

زمن، بينما جاء التعبير بالجملة الاسمية في جانب اليهود: {أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ}[1] والتي تشعر بثبات قوة حصونهم، وأنها لن يعتريها الضعف في أي زمن، وستظل عقبة كؤودًا في وجه من يحاول اقتحامها، تلك المعاني من عطاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على معاني الثبوت والدوام والاستمرارية، ومعلوم أن التعبير بها أقوى وآكد من التعبير بالجملة الفعلية، إذ يقصد بها مجرد الخبر [2]؛ ولأن وضع الجملة الاسمية على إفادة الثبوت والاستقرار، ووضع الجملة الفعلية على إفادة التجدد جعل الجملة الاسمية تدل على معنى أوْفَى مما تدل عليه الجملة الفعلية، وجعلها تفيد تأكيد المعنى، ولذلك كان تأثير الجملة الاسمية أقوى من تأثير الجملة الفعلية في بعض المقامات [3].

وقد أشار الشيخ أبو حيان إلى لفتة أسلوبية أخرى في الفرق بين الظنين اقتضاها حال كلا الفريقين فقال: " ولما كان ظن المؤمنين منفيا هنا أجري مجرى نفي الرجاء والطمع، فتسلط على أن الناصبة للفعل، كما يتسلط الرجاء والطمع. ولما كان ظن اليهود قويا جدا يكاد أن يلحق بالعلم تسلط على أن المشددة، وهي التي يصحبها غالبا فعل التحقيق، كعلمت، وتحققت، وأيقنت" [4].

وقوله: (من الله) قيد يفيد المبالغة القوية في شدة وثوق نفوسهم من منعة تلك الحصون؛ لشدتها واعتقادهم أنه لا توجد قوة مهما كانت تُسْقِط منعتها، ووراء

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) ينظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) لابن يعقوب المغربي: ١/٢٢٠، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون.

(٣) ينظر: البلاغة العالية ( علم المعاني ) ، للشيخ / عبد المتعال الصعيدي : ٥٨ ، ت: د. عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، ط : ٢ ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

(٤) البحر المحيط في التفسير (١٠/ ١٣٨).

هذا القيد أيضا تجهيل لهم ورمى لهم بالحماقة؛ إذ تناسوا أن هناك قوة خفية تعجز بجوارها كل القوى، تتدخل بمشيئتها وإرادتها من حيث لا يتوقع أحد من البشر؛ ولذا أتبع ظنهم السيئ بقوله – سبحانه–: {فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟}(١).

ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور أن الجملة " تمثيل، مثل شأن الله حين يسر أسباب استسلامهم بعد أن صمموا على الدفاع، وكانوا أهل عدد وعدة ولم يطل حصارهم بحال من أخذ حذره من عدوه وأحكم حراسته من جهاته فأتاه عدوه من جهة لم يكن أقام حراسة فيها " (٢).

وواضح مما ذكر أنه يقصد بهذا التمثيل الاستعارة التمثيلية، ولكن الغريب أن يقول عقب ذلك مباشرة: " وهذا يشبه التمثيل في قوله – تعالى–: { وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ}(٣)، "وهذا من الخلط البيِّن بين الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي عند الشيخ الطاهر.

والتعبير بالفاء العاطفة في (فأتاهم) بلمحتها الخاطفة، وما فيها من تعقيب وترتيب يكشف عن شدة مباغتتهم بما لم يكن في حسبانهم، وبما لم يكن متوقعًا أبدًا، وقد ناسب ذلك التعبير بفعل الإتيان الذي يشعر بسهولة هذا الإتيان بالنسبة إليه – سبحانه– وأن قدر الله فيهم وتهيئة أسباب خروجهم من المدينة لم يكن شيئًا أمام قدرته – سبحانه –.

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) التحرير والتنوير : ٢٨/٧٠.

(٣) السابق نفسه ، والآية من سورة النور، رقم : ٣٩.

وقد قصر الشيخ أبو السعود إتيان الله لهم من حيث لم يحتسبوا على " قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنه مما أضعف قوتهم، وفل شوكتهم، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة " [١].

وأرى أن يُحمَلَ المعنى على ما هو أعم من ذلك، فقتلُ رئيسهم كعب بن الأشرف وإن كان له التأثير النفسي القوي على يهود بني النضير، إلا أن هذا الحادث لا يمثل شيئا أمام العبارة القرآنية {فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ } [٢]، ولذا أرى أنها: كناية عن خذلان الله لهم، وتحقق الهزيمة بهم من جهة غير متوقعة لهم، فالسياق يشير إلى استبعاد القوم لهزيمتهم أو التنكيل بهم لشدة اعتقادهم في حصونهم المشيدة المنيعة، ولكنها جاءت من طريق آخر لم يخطر على بالهم، وهو أمر معنوي تمثَّل في إلقاء الرعب في قلوبهم، والرعب جند من جند الله، وسبب من أسباب النصر التي اختص بها رسول الله (ﷺ)، حيث قال: ((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)) [٣]، وهذا هو الذي لم يحتسبوه، ولم يكن يطرأ على عقولهم أبدًا؛ ولذا جاء التعبير بصيغة الافتعال في الفعل (احتسبوا)؛ دلالة على أن هذا الإتيان بتلك الصورة التي ألحقت بهم الهزيمة لم تكن على بالهم أبدًا؛ وذلك لأن " زيادة التاء في الافتعال من معانيها زيادة التسبب في حصول الأمر، فالحسبان يطلق على كل حسبان، أما الاحتساب فلا يطلق إلا على ما في حصوله من تكلف وجهد"[٤] ، يقول الشيخ الطاهر: عن سر التعبير بصيغة الافتعال في هذا السياق :

(١) تفسير أبي السعود : ٧٠٢/٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٣) صحيح البخاري أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، ح(٤٢٧)

(٤) شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد» لناظر الجيش: ٣٧٥٩/٨=

مبالغة في الحسبان، أي : الظن، أي من مكان لم يظنوه؛ لأنهم قصروا استعدادهم على التحصن والمنعة، ولم يعلموا أن قوة الله فوق قوتهم " (١).

كما كان التعبير بصيغة (الحسبان) دقة بيانية تتناسب مع المعنى، وتكشف عن أن هذا الأمر لم يكن يخطر ببالهم أبدًا، وهذا لا نجده في التعبير بالظن، فيقال: فآتاهم الله من حيث لم يظنوا ، يقول الراغب في الفرق بين الظن والحسبان:" والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، ويقارب ذلك الظن، لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر " (٢).

والتعبير باسم الجلالة (الله) الذي هو من وضع الظاهر موضع المضمر مما يتناغم مع ذلك المعنى، وكأن الحق –جل جلاله– بقوته وسلطانه، وشدة بطشه وانتقامه أتاهم إتيانا مباشرا، ويزداد هول ما نزل بهم بجملة العطف (وقذف في قلوبهم الرعب) وقد عطفت هذه الجملة على سابقتها للتوسط بين الكمالين، واتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، والتعبير بها فيه لون من الإطناب، وهو عطف الخاص على العام، فإتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا في ذاته رعب بالغ، وهول مفزع، وتهديد لا يدرك كنهه، فجاء عطف جملة (وقذف في قلوبهم الرعب)، وكأن الرعب جاءهم مرتين، وتخصيصُ تلك بالذكر بعد العام ؛ لاشتمالها على الحالة العجيبة من الانتقام والهلاك النفسي الذي لم يكن يطرأ ببالهم أبدًا، وكان أساس هلاكهم.

---

= دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة –جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.

(١) التحرير والتنوير :٢٨/٧٠.

(٢) المفردات : ١٢٥ .

**وإن قيل: لماذا لم يكن قذف الرعب في قلوبهم مترتبًا على ما قبله بالفاء، فيقال: فأتاهم الله... فقذف في قلوبهم... قلتُ: لمَّا كانت الواو لمطلق الجمع، ويحتمل أن يكون المعطوف والمعطوف عليه معها، بناء على هذا المعنى قد حدثا في زمن واحد وكانت معطيات السياق تُرَشِّحُ حدوث الفعلين (الإتيان والقذف) في زمن واحد، كان ذلك أدل على شدة ما نزل بهم؛ لما تؤذن به الواو من حدوث الفعلين معا، ولو جاء النظم بالفاء فقيل: فقذف... لكان القذف مترتبا على الإتيان، وهذا المعنى لا يعطي عطاء الواو العاطفة.**

**وتتجلى المبالغة واضحة في إيثار النظم الكريم التعبير بلفظ (قذف)، وأصل القذف: الرّمي البعيد، ولاعتبار البُعد فيه قيل: منزل قَذَفٌ وقَذِيفٌ، وبلدة قَذُوفٌ: بعيدة، والتقاذف: الترامي، وقذفه به: أصابه، وقذف المحصنة: سبها، والقذف بالحجارة: الرمي بها، والقذافة والقذَّاف، جمع: هو الذي يرمي به الشيء فيبعد [1].**

**وقد استعير في الآية لحصول الرعب (في قلوبهم) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية بجامع: تمكن الشيء واستقراره في كل.**

**والتصوير بالاستعارة هنا له دلالته التي لا يعطيها التعبير الصريح لما يشعر به من حصول الرعب في قلوبهم بقوة وشدة ودفعة واحدة، دون أن يتسلَّل إليها شيئًا فشيئًا، وهذا يؤذن بأن قلوبهم كانت قبل ذلك يداخلها الشعور بالأمن والطمأنينة، وهذا يتناغم مع قوة اعتدادهم بمنعة حصونهم، كما كشف عنه التعبير القرآني.**

**واختير (في قلوبهم)؛ لأن القلوب مجمع المشاعر، وموطن الأحاسيس من الخوف، والهلع، والقلق، والحيرة، والتردد، وهذا يدل على أنه هلاك نفسي، وهذا هو**

---

**(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٩٨)، وينظر: لسان العرب، لابن منظور : (قذف).**

الذي لم يحتسبوه أبدًا، والتعبير بحرف الظرفية (في) يشعر بتمكنه واستقراره في قلوبهم ، وأنه داخل سويدائها وتجسَّد فيها.

وتعريف (الرعب) بـ (أل) يشير إلى كماله وبلوغه الغاية القصوى، وكأن الذي ألقي في قلوبهم الرعب كله بجملته، والكلمة بوقعها وجرسها الصوتي، وما فيها من رعدة حرف الراء وتكرارها وخروج العين من أقصى الحلق، وقلقلة الباء وانفجاريتها كل هذا ينطق بالهلع والفزع وشدة الخوف التي تمكنت من قلوب القوم.

**موازنات وفروق**:

هذا والناظر في البيان القرآني يجد أن جملة (وقذف في قلوبهم الرعب)جاءت مرتين، وكلاهما في شأن اليهود، مرة في الآية محل الدراسة في شأن بني النضير، وأخرى في سورة الأحزاب في شأن بني قريظة في قوله – تعالى -: {وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾}[1] كما أن الناظر يجد أن لفظ (الرعب) معرفا ورد في كتاب الله(ﷻ) أربع مرات، مرتين في شأن اليهود في الموطنين السابقين، ومرتين في شأن مشركي مكة والموطن الأول في قوله – تعالى– في شأن مشركي غزوة بدر {إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ }[2]، والموطن الثاني في شأن مشركي غزوة أحد {سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ}[3].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.

**وهذا يدعو إلى التساؤل: لماذا آثر النظم التعبير بقذف الرعب في القلوب في شأن اليهود، بينما يؤثر النظم التعبير بإلقاء الرعب في شأن مشركي قريش؟**

**أقول : – واللّه أعلم – إن التعبير بالقذف كان ملائما لسياقه في كلا الموطنين؛ لأن اليهود في الموقفين لم يواجهوا المسلمين بالقتال، بل تحصَّنُوا في حصونهم معتدين بقوتها، معتقدين أنها تدفع عنهم الهزيمة، فكان سلاح الرعب هو السلاح الوحيد في إلحاق الهزيمة بهم، فكان من المناسب له أن يُقْذَف في قلوبهم بقوة وشدة، بحيث يتمكن من قلوبهم ويتجسد في سويدائها، فتتحقق الهزيمة النفسية قبل الهزيمة الفعلية.**

**أما في الموطنين اللذين واجه المسلمون فيهما المشركين في غزوة بدر أو غزوة أحد، فقد تمَّ الصراع على أرض المعركة، وكانت المواجهة الفعلية بالقتال، وكان المسلمون في غزوة بدر في موقف لا يتصور معه النصر أبدا، كما بيَّنْتُ في المقام السابق، كما كان حالهم في غزوة أحد في بدء المعركة هو الهزيمة لولا لطف الله بهم، فاستعادوا ترتيب صفوفهم حتى تحقق لهم النصر.**

**ولما كان هذا الحال منهم مدعاةً لإدخال العجب في نفوسهم، حيث أعجبتهم كثرتهم في غزوة بدر، وغرتهم قوتهم في بدء المعركة في غزوة أحد، اقتضى المقام أن يعبر النظم الكريم عن وضع الرعب في قلوبهم، بلفظ (الإلقاء) الذي هو أخف من (القذف)؛ تهوينًا من شأنهم، واستخفافًا بقوتهم التي اغتروا بها، وإشارة بالغة بأن رعبًا خفيفًا يلقيه الله (ﷻ) في قلوبهم جدير بإلحاق الهزيمة بهم، وبهذا تتضح دقة ومناسبة كل لفظ لسياقه ومقامه.**

**وسؤال آخر: لماذا جاء التعبير بلفظ (الحصون) في سياق سورة الحشر، بينما جاء التعبير بلفظ (صياصيهم) في سورة الأحزاب، وهي كما يقول الراغب: " حصونهم، وكل ما يتحصن به، يقال له(صيصة)"[1] ؟**

**أقول: إن حال اليهود من بني النضير في سورة الحشر هو الاعتداد بحصونهم لاعتقادهم في قوتها ومنعتها، وعدم توقع الهزيمة منها أبدًا، حتى ظن المسلمون أنهم لن يخرجوا من المدينة أبدًا لقوة حصونهم، كما ظن اليهود – أيضًا – أنها مانعتهم من الهزيمة، وهذا أدعى إلى التصريح والتعبير بلفظ (الحصون) ذاتها دون المبالغة في معناها، أما في سورة الأحزاب، فالمقام ليس اعتداد اليهود من بني قريظة بحصونهم، بل المقامُ مقامُ ردٍ على ما بدر منهم من غدر وخيانة تجاه الرسول (ﷺ) والمسلمين في مناصرتهم للمشركين في غزوة الأحزاب ونقضهم للعهد مع رسول الله (ﷺ) في لحظات بالغة الخطورة على الدعوة وكان النبي (ﷺ) يعوِّل عليهم في سد ثغرة المدينة من ناحيتهم، ولكن كان الغدر منهم، وكان من الممكن أن تُستأصل شأفة الدعوة في ذلك الحين، ولذا كان من المناسب أن تكون العقوبة أشد وأقوى من عقوبة بني النضير، وهذا ما كان؛ حيث لم تقتصر على خروجهم من المدينة كحال بني النضير، بل كانت كما صور القرآن{ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ }[2] تعبيرًا بلفظ (صياصيهم) وكأن إنزالهم لم يكن من (الحصون) ذاتها بل من عقرها وداخلها، وكأن المعنى: أنزلهم من قلب معاقلهم التي يحتمون بها داخل الحصون، ومن أماكن أشد تحصينًا، وأمانًا من عموم الحصن ذاته؛ تنكيلًا وإذلالًا، وتمكنًا بالغًا منهم في عملية إنزالهم من حصونهم، يدل**

---

**(١) المفردات : ٢٩٤ .**

**(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.**

على ذلك أن اللفظة يلمح في دلالتها اللغوية معاني الدقة والقوة والحدة، فالصيصة: شوكة الحائك التي يسوى بها السداة واللحمة، وصياصي البقر: قرونها، وربما كانت تركب في الرماح مكان الأسنة، وفي التهذيب: أَنه ذَكَرَ فِتْنَةً تَكُونُ فِي أَقطار الأَرض كأَنها صَياصِي بقرٍ أَي قُرونُها، واحدتُها صِيصة، بِالتَّخْفِيفِ، شبَّه الْفِتْنَةَ بِهَا لِشِدَّتِهَا وَصُعُوبَةِ الأَمر فِيهَا. والصِّيصَة أَيضاً: الوَتِدُ الَّذِي يقْلَع بِهِ التَّمْر، والصِّنّارةُ الَّتِي يُغْزَل بها ويُنْسَج[1].

كل هذا يجعل اللفظةَ تنطق بمعاني الشدة، وقوة التنكيل التي نزلت ببني قريظة؛ تناسبًا مع حجم الخطر الذي كان منهم في تلك الظروف العصيبة، كما أن اللفظة بما يتخللها من مد وزيادة في بنائها اللغوي، يتناسب ويتناغم مع شدة العقوبة التي نزلت بهم، والتي صرح بها النظم، وفي فاصلة الآية {فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا} بما تنطق به من بالغ التنكيل، وشدة العقاب.

وبالعودة إلى الآية محل الدراسة تأتي جملة {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ }[2] والذي دفع يهود بني النضير إلى ذلك كما يقول المفسرون: " ليسدُّوا بما نقضُوا منها من الخشبِ والحجارةِ أفواهَ الأزقةِ ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكنُ للمسلمينَ ولينقلُوا معهم بعضَ آلاتِها المرغوبِ فيها مما يقبلُ النقلَ " [3].

وهي كاشفة عن الدمار والفساد الذي أنزلوه ببيوتهم قبل رحيلهم، وتكشف عن طبيعة اليهود ونفسيتهم المريضة ورغبتهم في التدمير والإعثاء بالفساد في الأرض، وقد جاء التعبير بالفعل (يُخَرِّبُون) دالًا على كل تلك المعاني، التي لا

(١) ينظر: لسان العرب : ( صيص).

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٢٢٦)

نجدها في (يهدمون بيوتهم..)، إذ الهدم مجرد (إسقاط البناء) [١]، كما تتضاعف تلك المعاني بمراعاة قراءة (يُخرِّبون) [٢]، بما يُشْعِر به تضعيفُ الفعل من معاني التكثير والمبالغة في الفعل.

والمقصود من تلك الجملة الكريمة: " التعجيب من اختلال أمورهم فإنهم وإن خربوا بيوتهم باختيارهم لكن داعي التخريب قهري " [٣].

والجملة الكريمة قيل في إعرابها: يجوز أن تكون مستأنفة كأنها تفسير للرعب، وأن تكون حالية من الضمير في قلوبهم [٤].

وحملها على الحالية يكشف عن شدة الفزع والهلع الذي أصابهم، فكان منهم هذا التصرف العجيب، وهو تخريب بيوتهم، وحملها على الاستئناف فيه تسليط للضوء على هذا الجزء من المعنى، وأنه داعية التأمل والاعتبار ، ومن هنا عدل النظم عن صياغة الماضوية التي سار عليها نسق بناء الآية منذ بدئها (أخرج – ظننتم – ظنوا – فأتاهم – وقذف) إلى التعبير بالمضارع؛ لأنه الحدث الأهم الذي حدث منهم، بل هو الفعل الوحيد لهم الذي نصَّت عليه الآية، وكان هذا داعيًا إلى المجيء به في صورة الاستئناف، وهذا يتفق مع مذهب العرب في طبيعة بناء معانيهم " فمن عادتهم إذا جاء في الكلام مقطع ثري وحي، ومثير، وله مزيد اختصاص بالمعنى، وقفوا عند هذا المقطع وأشبعوه، وزادوه بيانًا " [٥].

---

(١) المفردات : ٥١٦ .

(٢) ينظر: الكشاف : ٣٦٦/٤ . شرح طيبة النشر للنويري (٢/ ٥٨٣) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، تقديم وتحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٣) التحرير والتنوير : ٧١/٢٨ .

(٤) ينظر: إعراب القرآن وبيانه : ٣٢/١٠ .

(٥) شرح أحاديث من صحيح البخاري ( دراسة في سمت الكلام الأول) ، د. محمد أبو موسى:=

ويضاف إلى ذلك عطاء الفعل المضارع هنا ما فيه من استحضار هذا الفعل العجيب منهم، ونقل هذا الحدث من غابر الزمن ووضعه أمام العين في جلاء ووضوح، وقدرة بارعة؛ لتستخلص منه النفوس العبرة والعظة التي دعت إليها فاصلة الآية الكريمة، وتتبدى دقة النظم القرآني في المغايرة بين التعبير بـ (يخربون ديارهم) إلى ما جاء عليه البيان القرآني في التعبير بلفظ (بيوتهم)؛ لأن البيوت فيها معاني السكينة والشعور بالأمن والطمأنينة وكل هذه المعاني فقدوها عند تخريبها، وهذا أدعى إلى التعجيب من صنيعهم، وتتصاعد معاني التعجيب والاستنكار البالغ من صنيعهم بمراعاة القيد (بأيديهم) وهو حال من الفعل (يخربون) فتخريبُ الإنسان بيده لأهم شيء يملكه، وهو بيته الذي يأويه ويطمئن به هو غاية التعجب والاستنكار، وتتكاثف تلك المعاني وتبلغُ غايتها وتتعاظم حين يخرب الإنسان بيته بيد عدوه الذي يحاربه، وهذا ما أبان عنه النظم القرآني بهذا القيد (وأيدي المؤمنين) يقول الشيخ الزمخشري كاشفا عن بلاغة هذا التعبير: " فإن قلت: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قلت: لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه " [1]، وهذا يعني أنهم لما تحصنوا بحصونهم وحاولوا عدم الخروج منها نزولًا على حكم رسول الله (ﷺ) حملوا المؤمنين على تخريب هذه الحصون من الخارج ليدخلوا عليهم.

والتعبير بلفظ (المؤمنين) في هذا السياق تشريف لهم، وتعظيم لإيمانهم، وإشعار بدور الإيمان في استحقاق نصرة الله (ﷻ).

---

= ٢٠٠ .

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٥٠٠).

ثم تختم الآية الكريمة بصيغة الأمر المباشر {فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ }[1] وفيه لفتُ النظرِ وإثارةُ النفوسِ إلى الاعتبار بهذا الحدث العجيب العظيم وما فيه من دلائل بالغة على قدرة الله (ﷻ) وتدبيره المحكم في طرد هؤلاء اليهود من بني النضير وجلائهم بتلك الصورة التي لم يكن يتوقعها المؤمنون أبدًا.

و(الفاء) في فاصلة الآية الكريمة هي الفاء الفصيحة؛ حيث أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إن تدبرتم هذا وعقلتموه فاعتبروا يا أولى الأبصار، والإيجاز بالحذف هنا يؤدي دورًا بالغًا في تقطير الكلام، وتصفية العبارة ونفي الفضول عنها؛ اختصارًا وتركيزًا يلفت النظر إلى استحضار العبرة والعظة من مضمون القصة التي سردتها الآية الكريمة.

**موازنة وفروق:**

وبالتأمل نجد أن النظم القرآني جعل فاصلة الآية الكريمة دعوة لأولى الأبصار إلى الاعتبار بصيغة الأمر المباشر( فاعتبروا)، بينما كانت فاصلة الآية السابقة في المقام السابق {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ }[2] ولعل السر وراء تلك المخالفة الأسلوبية هو اختلاف مقام كلتا الآيتين، فالآيتان وإن كانت كل واحدة منهما تحمل عبرة عظيمة، وعظة جليلة، إلا إن المتأمل فيهما يجد شيئا من المفارقة اقتضت أن يختلف التعقيبُ على كل آية بما جاء به النظم الكريم.

**وبيان ذلك:** أن آية (آل عمران) وإن تضمنت شيئًا عجيبًا، وهو تحقق النصر في جانب الفئة القليلة المؤمنة التي بلا عتاد وعدة على الفئة الأخرى الكافرة التي توفر لها كل أسباب النصر المادية، وهذا وإن كان أمرًا عجيبًا، وآية مثيرة للتفكر ،

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

وداعية للتأمل، فإن آية الحشر تضمنت ما هو أعجب، فانتصار المسلمين على يهود بني النضير لم يكن نتيجةَ لقاءٍ مباشرٍ مسلَّحٍ على أرض المعركة، فالفريقان لم يلتقيا، كما نصَّت آية آل عمران، بل ظن المؤمنون أن اليهود لن يخرجوا، وظن اليهود أنهم مانعتهم حصونهم أن ينجح المؤمنون في إخراجهم، فكل فريق يَسْتَبْعِد الخروج نهائيا، ولكن يأتي سلاح خفي، لم يكن يطرأ على بالهما، فيقذفه الله في قلوب يهود بني النضير، فيرفعون راية التسليم والإذعان، ويفعلون آية العجب كله، وهو تخريب بيوتهم بأيديهم أنفسهم.

أقول: هذه المفارقة اقتضت أن يكون ختام فاصلة آية (آل عمران) بالأسلوب الخبري، الذي يقرر المعنى، ولا يأمر بالاعتبار المباشر، وإن تضمَّن الخبرُ الرغبةَ في تحصيل مضمونه، ولكن لما كانت (آية الحشر) تتضمَّن ما هو أعجب من آية (آل عمران) اقتضى السياق التعبير بصيغة الأمر المباشر (فاعتبروا) الذي من شأنه أن يهز النفوس، ويحرك الوجدان، ويلفت الأذهان إلى التأمل والاعتبار بتلك الآية التي بلغت الغاية في العجب والغرابة، حيث دبَّر الله خروجهم بلا أي قتال، ويسَّر أمر هزيمتهم دون أدنى مواجهة.

ولا يفوتني أن أشير إلى تلك المغايرة الأسلوبية التي سلكها النظم القرآني في ختام آية الحشر؛ حيث تقدَّمت صيغة الأمر على صيغة النداء (يا أولى)، والغالب أسلوبيًا في نظم البيان القرآني، وفي نظم اللسان أن يتقدم النداء ثم يليه الأمر،

كما في قوله – تعالى -: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ}[1]، وقوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢}[2] وغير ذلك العديد من الآيات؛ وذلك لأن القصد هو تسليط الضوء على الاعتبار وتحقيقه، وهذا ما حققته صيغة الأمر المباشر، ثم كان النداء تحقيقًا للفت الذهن، وإثارة الانتباه إلى مضمون الخبر ذاته.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١-٢.

# المبحث الثالث

# مقام الاعتبار لأولي الأبصار في سورة النور

# في سياق بيان بعض دلائل القدرة

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾}[1].

## علاقة الآيتين بالغرض العام والسياق الكلي للسورة الكريمة:

تعددت الموضوعات، وتنوعت الأغراض التي تعالجها السورة الكريمة، والمحور الرئيس الذي تدور حوله هذه الموضوعات، وتلك الأغراض " هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقي على درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة التي تصل القلب بنور الله وآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة، والهدف واحد في الشدة واللين هو تربية الضمائر، واستجاشة المشاعر، ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة حتى تشف وترق، وتتصل بنور الله "[2].

وقد قررت السورة في بدئها عددا من التوجيهات والأحكام، والحدود، والآداب التي لو التزم الناس بها لعاشوا من خلالها في ظل نور الله (ﷻ)، الذي هو في حقيقته (نور على نور)، كما بينت السورة الكريمة، ومن هنا كان لابد من استجاشة النفوس، وتوجيه القلوب نحو هذا النور، وكان من المناسب أن تستطرد

(١) سورة النور، الآيتان : ٤٣-٤٤.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٤/٢٤٨٦.

السورة في بعض موضوعاتها إلى سوق الأدلة الكاشفة عن قدرة الله (ﷻ)، كما أبانت الآيتان – لتُوقِفَ الناس على جلال نور الله المبثوث في تضاعيف الكون كله، وتدفعهم دفعًا إلى الالتزام بتلك الأحكام والتعاليم التي تصدرت بها السورة الكريمة، والتي كانت الغرض الأول من ورائها، والتي من شأنها أن تؤنس النفوس، وتجلب لها السعادة والطمأنينة، وتجعلها تعيش في معيَّة هديه، وجلال نوره – سبحانه –.

**علاقة الآيتين بالسياق السابق عليهما:**

ضربت السورة في السياق السابق مثلا لنور الله (ﷻ) الذي يملأ الكون كله، وقربت لأذهان الناس صورته من خلال عرض هذا المثل، والناس تجاه هذا النور أصناف، وقد أشار السياق إليهما، صنف مؤمن يحتاج إلى ما يثبته، ويربط على قلبه، ويوثق الصلة بينه وبين صاحب هذا النور، والذي هو (نور على نور)؛ ليعيش في سماء نوره، ورحابة هديه، وصنفان آخران أحدهما كافر والآخر منافق، يحتاجان إلى التوجيه، وإيقاظ فطرتهما الغافلة عن جلال هذا النور، حتى يعيدا النظر في موقفهما الرافض المنحرف.

وناسب ذلك أن يعرض النظم بعد ذلك هذه الآيات التي اشتملت على دلائل قدرته – سبحانه – والكاشفة عن جلال الله، وعظمته، والناطقة ببديع صنعه، وعجيب خلقه، والتي تهدي نور الله لمن يطلبون النور، ويلتمسون الهداية؛ لأنها " براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته. ودلائل منادية على صفاته، لمن نظر وفكر، وتبصر وتدبر" (١).

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٤٦).

**التحليل البلاغي:**

**قلت: إن الآيتين الكريمتين تعرضان لمشهدين بديعين من صنع الله (ﷻ) يكشفان عن بالغ قدرته، وشمول علمه وحكمته، ونفوذ مشيئته وإرادته، وقد عرضهما النظم الكريم في دقة متناهية من الإعجاز البلاغي، فلا تصلح مفردة أو حرف أن يكون بديلًا لما جاء في نظمهما المعجز.**

**والمشهد الأول يحكي كيفية نزول المطر من السماء، والمراحل التي تكون قبل تلك الظاهرة الكونية التي نراها بأعيننا، ولا يلتفت إلى ما فيها من دلائل القدرة إلا أصحاب البصائر الواعية، والقلوب السليمة، والفطر المستقيمة، ومن ثم ساق – سبحانه – تلك الآية في ثوب الاستفهام {أَلَمْ تَرَ}، وأصل الدلالة البلاغية له هو التقرير، أي: تقرير الرؤية، وهي بصرية؛ لأن الحدث واقع، ولا ينكر من أحد، ولكن الحق – سبحانه – يقصد من وراء هذا التقرير معنى التحقيق والتثبيت؛ ليدفع المُقِرَّ إلى الخضوع والإذعان والانقياد لله رب العالمين، بالإضافة إلى ما حققه هذا الاستفهام من معاني اللفت والإثارة والتنبيه والحث على تأمل الأسرار ودلائل القدرة في هذا المشهد الكوني، وهذه المعاني لم تكن لتتحقق لو جاء الأسلوب في ثوب الخبرية ( الله يزجي سحابا).**

**والخطاب هنا وإن كان موجَّهًا في أصله للنبي (ﷺ)، إلا أنه عام لكل من تتأتى منه الرؤية، وليس للمسلمين وحدهم أيضا، وهذا يفتح المجال أمام كل ذي عقل ليُعمل بصره وقلبه للتأمل في عجيب قدرة الله وصنعه في هذا المشهد الذي تعرضه الآية الكريمة، وما فيه من الدقائق والأسرار العجيبة، وصولا بالمخاطب إلى الإقرار والإذعان بالعبودية لله – وحده –.**

**ولأن هذا المشهد يتكرر كثيرًا أمام الأعين، ولكن كثيرًا من الناس يغفلون عن التدبر فيه والتفكير في عجائب صنعه، ومن هنا نجد النظم الكريم يقرره مؤكدًا له؛**

تنزيلًا لهؤلاء الغافلين منزلة المنكرين للشيء الواضح الصريح، توبيخًا لهم وتعريضًا بغبائهم، وكذلك ليحث النفوس حثا على الامتثال بما وراءه ،وهو خضوعهم وانقيادهم لله رب العالمين، ولذا آثر النظم التعبير بهذا اللفظ الجليل، مع إمكان التعبير عنه مضمرا؛ لسبق التعبير به في السياق السابق؛ وذلك ليضفي على المقام الجلال والمهابة التي تتناسب مع بدائع القدرة وعجائب الصنعة التي تبرزها الآية الكريمة، وتتكاثف عناصر التوكيد والتقرير للمعنى في النظم، فيسند الفعل (يزجي) إلى فاعله مرتين، مرة إلى اسم الجلالة، وأخرى إلى الضمير العائد عليه، توكيدًا يتناسب مع جلال هذا المشهد، ودقة الإبداع فيه، ودفعا لأي شك من جاحد أو معاند.

ويلحظ أن النظم الكريم لم يسند فعل (الإزجاء) إلى سببه فيقال: ألم تر أن الله يرسل الرياح فتزجي سحابًا، فالرياح سبب الإزجاء، ولكن الإسناد الصريح هنا مما يتناسب مع ما تقرره الآية من مظاهر القدرة؛ دفعًا للعبد، وحثًا قويًا له نحو التفكير في هذا الصنع العجيب، وإيقاظًا لفطرته التي ران عليها ثوب الغفلة والإعراض، والجهالة والإنكار.

والتعبير بالفعل (يزجي) دون غيره من بدائله اللغوية مثل: (يسوق) أو (يحرك)، أو (يدفع)، دقة تعبيرية لا نجدها في مثل تلك البدائل، فمادة الكلمة تدور حول سوق الشيء برفق ويسر وهدوء وتمهل، كما تدل على قلة الشيء وعدم الاعتداد به، ففي اللسان: التزجيةُ: دفعُ الشيء كما تُزَجِّي البقرةُ ولدها، أي: تسوقه، ويقال: زجَّيْتُ الشيء تزجية إذا دفعته برفق، وزجى الشيء وأزجاه: ساقه، ودفعه، والريح تزجي السحاب أي: تسوقه سوقًا رفيقًا، وقيل: زجَّاه وأزجاه ساقه سوقا لينا، وفي الحديث: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُزْجِي

الضَّعِيفَ)) [1]، أي: يسوقه ليلحقه بالرفاق، والمزَجَّي: القليل، وبضاعة مزجاة: قليلة، والمزَجَّي من كل شيء: الذي ليس بتام الشرف ولا غيره من الخلال المحمودة [2].

وعلى هذا : فالتعبير بهذا اللفظ خاصة في هذا السياق يُشْعِر بضعف هذا الحساب، وأنها في بدء نشأتها، وفي هذا ما يؤذن ببالغ القدرة، لما يترتب على هذه السحب الضعيفة من الأمور العجيبة التي كشفت عنها الآية بعد ذلك، ومعنى (الضعف) هذا انفرد ابن كثير من بين المفسرين بالإشارة إليه بقوله: (يذكر – تعالى – أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء) [3]، و" فيه إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته – سبحانه – مما لا يُعتد به " [4].

## موازنة وفروق:

وبالنظر في البيان القرآني يجد القارئ أن هذا الفعل (يُزْجِي) لم يأت إلا مرتين في كتاب الله سبحانه – مرة في سياق الآية – محل الدراسة – وأخرى في سورة (الروم) في قوله سبحانه –: { رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ } [5]، والآية الكريمة كاشفة عن امتنان الله على

(١) سنن أبي داود ، أول كتاب الجهاد، باب في لزوم الساقة، ح(٢٦٣٩) المحقق: شعَيب الأرناؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩ م.، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) ينظر: لسان العرب : زجا.

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣/٣٠٤.

(٤) تفسير العلامة أبي السعود: ٤/١٠٠.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.

عباده بنعمة تسخير الفلك في البحر للابتغاء من فضله، ونظم الآية تَظْهَرُ فيه معاني اللطف والرحمة بصورة لافتة، فبدء الآية بلفظ (رب) مضافا للمخاطبين فيه معاني الإنعام، والعناية، والرعاية، وتقديم المتعلق في (يزجي لكم) مع إقبال الله (ﷻ) على المخاطبين بالخطاب بذاته العلية (ربكم – لكم – لتبتغوا – بكم )، ثم ختام الآية بصيغة المبالغة في الرحمة(رحيمًا)، وهذا مما يتناغم مع إزجاء الفلك من أجل الابتغاء من فضل الله (ﷻ) وهذا يقتضي سوق (الفلك) سوقًا هيِّنًا رقيقًا حتى يتحصَّل العباد على رزقهم ابتغاءً من فضله – سبحانه –، ولذلك نجد الحق – سبحانه – يعبر بلفظ (تجري) في سياق آخر من سورة (لقمان) يقول – سبحانه-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾}[1] فلما كان الغرض بيان عجائب قدرة الله (ﷻ) وآياته المكنونة في البحار من خلال عملية الاستكشاف والاستطلاع اقتضى السياق التعبير بالفعل (تجري) دون (تزجي)؛ تناسبًا مع قوة دفع الماء لهذه الفلك في جريانها حتى يتحقق الغرض الذي أراده الله (ﷻ) وهو ما جاء عليه التعبير القرآني( ليريكم من آياته)، وهذا يختلف عن قصد ابتغاء الفضل الذي يقتضي فعل الإزجاء الهيِّن السهل الرفيق.

وبهذا تتبدى دقة البيان القرآني في إيثاره التعبير بهذا اللفظ المعبر (يُزْجِي) في هذين السياقين خاصة، دون مثيلاته اللغوية.

كما نجد دقة البيان القرآني أيضا في تعبيره بالفعل (يثير) مسندًا للسحاب في سياقات أخرى من كتاب الله، يظهر ذلك جليًا في آية فاطر{ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ

(١) سورة لقمان، الآية: ٣١.

فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ }[1] فالتعبير بفعل الإثارة وما فيه من الدلالة على قوة الانتشار، يكشف عن طبيعة تلك السحاب، فهي هنا مؤهلة لنزول المطر بدلالة التعقيب(فسقناه إلى بلد ميت) بخلاف السحاب في الآية محل الدراسة، فهي في مراحل نشأتها الأولى، ومن هنا ناسبها فعل الإزجاء.

وتنكير (سحابًا) وإن أضفى عليه معاني التعظيم والتفخيم، إلا أنه يُشْعِر بمراحل بدئه وتكوينه الأولى، ولذلك نجد الحق – سبحانه–، يأتي به معرفًا في قوله – تعالى–: {هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾}[2] تناسبًا مع وصفه بـ (الثقال) التي تنبئ بهطول المطر منه، كما يتناغم مع مراحله الأخيرة، بدلالة الفعل (ينشئ) وما تقتضيه من إعداد وتهيئة، يقول الراغب: " والنشأة: إحداث الشيء وتربيته... ومنه نشأ السحاب لحدوثه في الهواء وتربيته شيئًا فشيئًا" [3].

ثم يكشف – سبحانه – عن مرحلة أخرى من مراحل هذا الحساب الذي تزجيه يد القدرة الإلهية، وما يطرأ عليه من تغيير، فيقول: " ثم يؤلف بينه ": " أي بين أجزائه بضم بعضها إلى بعض " [4]. وقيل: " يجمعه عند انْتِشَائِهِ ليقوى ويتصل وَيَكْثُفَ " [5].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٢.

(٣) المفردات : ٤٩٤ .

(٤) تفسير أبي السعود :٤/١٠٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن :١٢/٢٨٧ .

وتظهر دقة الأداء القرآني بادية في إيثار تلك الكلمة المعبرة الدقيقة التي لا تصلح غيرها في أداء معناها، كيجمع، أو يضم مثلًا، فالشيء " المؤلف ما جمع من أجزاء مختلفة، ورتب ترتيبًا قدم فيه ما حقه أن يقدم، وأُخِّر فيه ما حقه أن يؤخر " (١).

فالمقصود في الآية ليس مجرد جمع أو ضم، بل ترتيب دقيق محكم، في شكل متناسق، يجمع بين المتنافرات والأضداد بقدرته – سبحانه–، تأمل قوله – سبحانه–: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾} (٢) وتأليف القلوب ليس بالشيء السهل اليسير، قال –جل شأنه–: { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾} (٣) ، ومن هنا فالتعبير بهذه الكلمة يعد إعجازًا بلاغيًا يؤكده ما أثبته العلم من أن هذه السحب قبل تأليفها مع بعضها يكون بينها تجاذب، وتدافع، وتضاد ، يتمثل فيما تكون عليه بعض هذه السحب من شحنات كهربائية موجبة، وبعضها الآخر من شحنات كهربائية سالبة، يتم جمعها وفق قوانين فيزيائية كهربائية بقدرة الله (ﷻ)(٤)، ولن تجد أدق من هذه الكلمة في أدائها لمعنى الجمع بين هذه السحب وما بينها من تناقضات، والتعبير بهذا الفعل(يؤلف) مع السحاب في هذا السياق يعد من فرائد التعبير القرآني في حديثه عن السحاب،

(١) المفردات : ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

(٤) ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، حفني أحمد:٣٦٩ ، دار المعارف .

وهذا يكشف عن نوع فريد من السحاب له خصائصه وسماته، كما سيتضح بعد ذلك في هذه الدراسة.

ويلحظ أن النظم الكريم أضاف لفظ (بين) إلى ضمير السحاب، وهي لا تكون مضافة إلا إلى جماعة، أو اثنين، قيل: " لأن السحاب في معنى الجمع، واحدها سحابة، كما يجمع النخلة: نخل، والتمرة: تمر، فهو نظير قول القائل: جلس فلان بين النخل " [١]. وقيل: " لأن المعنى بين أجزائه، كما قيل في قوله: بسقط اللوى بين الدخول فحومل[٢] " [٣]. وقيل: " أي بين مفترق السحاب نفسه؛ لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجا "[٤].

وتأتي مرحلة ثالثة من مراحل تكوين هذا الحساب فيقول – سبحانه–: {ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا }[٥]" والركام: المتراكم بعضه فوق بعض " [٦]، وفي اللسان: الرَّكم جمع الشيء، ويقال منه: ركم الشيء يركمه ركما، إذا جمعه، وألقى بعضه على بعض، والركمة: الطين المجموع، والركام: الرمل المتراكم [٧].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري: ٢٠٣/١٩ ، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، وينظر: تفسير الرازي :٤٠٣/٢٤.

(٢) عجز بيت من الطويل من معلقة امرئ القيس وصدره:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل..... "الديوان ص ٢٩". اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٤٥).

(٤) الكشاف: ٢٩٩/٣ .

(٥) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٦) المحرر الوجيز: ١٨٩/٤ .

(٧) ينظر: لسان العرب: ركم ، وتفسير القرطبي : ٢٨٧/١٢ .

**والمعنى: ثم يجعله طبقات بعضها فوق بعض، وهذا النوع من السحب أطلق عليه علماء الطقس في العصر الحديث مصطلح (السحب الركامية) [١] وهي نفس تسمية القرآن الكريم لها، إذ لم يجدوا أدق من وصف القرآن الكريم لها، وهذه السحب تتميز بخصائص لا توجد في غيرها من أنواع السحب الأخرى من حيث كبر كتلة أحجامها، وارتباطها بظاهرتي البرق والرعد[٢]، وهو ما أبانت عنه الآية الكريمة بعد ذلك في إيجاز دقيق، وإعجاز علمي مبهر.**

---

(١) ينظر موقع ويكبيديا على الانترنت مقال بعنوان : سحاب ركامي
https://ar.wikipedia.org/wiki/

(٢) أثبت العلم أن طبيعة هذا النوع من السحب أنها ضخمة كبيرة، ولكن مساحتها صغيرة، حيث تمتد ثمانية كيلومترات، وإذا توسعت فلا تتجاوز عشرة كيلومترات، ولكنها تتصاعد عمودياً، وتتراكم فوق بعضها حتى يصل حجم الواحدة منها إلى حوالي عشرين كيلومتراً كأنها جبل. هذه السحب تتكون من ثلاث طبقات:

الطبقة السفلى: وهي القريبة منا مملوءة بنقاط الماء الصغيرة. وأما الطبقة الوسطى: فيوجد بها بخار ماء درجته أقل من الصفر، لأنه في ضغط أقل من الضغط الجوي، وهذا البخار يتجمد بسرعة عندما يصطدم بأي جسم صلب. وأما الطبقة العليا: فتوجد بها بلورات الثلج الجامدة، وعندما تنزل هذه البلورات تصطدم ببخار الماء في الطبقة الوسطى الجاهزة للتجمد فيتجمد حواليها، فيتكون البرد فيبدأ ينزل، فيصيب نقاط الماء في الطبقة السفلى، فتتجمع حوله فينزل مطراً. وهذا النوع من السحب في داخله تيار هوائي قوي يصعد للأعلى فيبرد، وينزل للأسفل فيسخن، وصعوده ونزوله مستمر، وعملية التدفئة والتبريد مستمرة، والبردة التي تجمع حولها الماء من قوة التيار يدفعها إلى الأعلى، فيحيط بها مزيد من الجليد فتكبر وتثقل، فتنزل لتصيب مزيداً من بخار الماء المبرد فيتجمع حواليها، فتثقل فتنزل أكثر، فيأتي التيار الهوائي ليصعد بها، تستمر هذه العملية إلى أن يأتي وقت لا يستطيع التيار الهوائي أن يرفعها، لأنها تكون ثقيلة جداً، فتبدأ بالنزول، فتذوب شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى الأرض وهي صغيرة الحجم.

ونلحظ دقة النظم القرآني ليس في اختيار الكلمات فحسب، بل في إيثاره التعبير بحرف العطف (ثم) بين هذه المراحل {يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا} [1] ، فهذا الحرف يصور الواقع تصويرًا دقيقًا؛ لأن هذه المراحل عمليات معقدة جدًا، تحتاج إلى فاصل زمني قد يطول أو يقصر بحسب مشيئته – سبحانه – وإرادته حتى تصير هذه السحب إلى حالتها الركامية.

يضاف إلى ما سبق : أن هذا الحرف (ثم) مع ما يفيده من الترتيب والتراخي الزمني ،يظهر فيها طي الزمن وتحريك الأحداث، فهي كما يقول د. محمد الأمين الخضري: " أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعاني إلى النفس في لطف، وتحرك الزمن في هدوء، وهذا معنى يصاحبها في حقيقتها ومجازها"[2]، كما أن (ثم ) " تحمل بطبيعتها معنى الحركة والتتابع" [3]،فالتعبير بهذا الحرف في هذا السياق

=ويثبت العلم الحديث أن هذا النوع من السحب (الركامي) يختلف عن غيره، فهو الذي يحدث فيه البرق والرعد يقول تعالى: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ). ويقولون: إن البرق يسببه البرد بانتقاله من أسفل إلى أعلى، فتتغير شحناته الكهربائية، ومع انتقال الشحنات الكهربائية وتجمعها يحدث تفريغ، فتحدث شرارة، ويحدث وراءها صوت الرعد بسبب خلخلة الهواء، ومن هنا يحدث الرعد والبرق. ينظر: مقال بعنوان: (وينزل من السماء من جبال فيها من برد)، الدكتور/ منصور العبادي أبو شريعة، يناير/٢٠٢٠، موقع إعجاز القرآن والسنة :https ///quran-m. com

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٢) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ( الفاء وثم ) للدكتور/ محمد الأمين الخضري: ٢٣٠ ، مكتبة وهبة – الطبعة الثانية –١٤٢٧ هـ– ٢٠٠٧ م .

(٣) نمط صعب ونمط مخيف ، د. محمود شاكر:٢١٢ ، دار المدني بجدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .

يصور في دقة بالغة هذه المراحل التي يمر بها السحاب في تتابع دقيق، وتصوير كاشف.

كما آثر البيان القرآني التعبير بالفعل المضارع، وكان هو النسق التعبيري بين هذه المراحل (يزجي – يؤلف – يجعله) لاستحضار صورة تلك المشاهد العجيبة في تكوين ونشأة كل مرحلة، وهذا أدعى إلى مخاطبة الفطرة الإيمانية، لدى النفس البشرية، فتذكرها في كل لحظة بصنع الله العجيب، كما أن الفعل المضارع يفيد معاني التجدد والاستمرارية، وهذا مما يتناسب مع حدوث تلك الظواهر في الحال والاستقبال دون تخلف.

**موازنة**:

والتعبير بالفعل (يجعله) في المرحلة الأخيرة لهذا السحاب دون ثم يركمه أو: ثم يكون ركاما؛ لأن التعبير بالجعل يُشْعِر بما بين هذه المرحلة وسابقتَيْها من ترابط وسببية، فالجعل " يتوقف على وجود مغايرٍ للمجعول، يكون منه المجعول، أو عنه كالمادة والسبب " [1] بخلاف التعبير بالكون؛ إذ يشعر بالانقطاع بين تلك المراحل؛ ولذا جاء التعبير به في القرآن الكريم واصفا مراحل الإنسان في الحياة الدنيا حتى مماته: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} [2]، فالتعبير بـ (الكون) دون (الجعل) في هذه المرحلة الأخيرة يتناغم مع انقطاع الصلة بين مرحلتي الحياة الدنيا، التي كانت في أزهي صورها، وأقوى مراحل اكتمالها حتى

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/١٥١ .

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

ذهبت وتحطمت، ومرحلة الحياة الآخرة، ولذا عقب السياق مباشرة بالحديث عنها {وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ }(١).

وتأتي المغايرة بين حروف العطف في قوله: {فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ }(٢)، والفاء بلمحتها الخاطفة، وإن كانت تشعر بسرعة نزول المطر بعد أن تصل تلك السحب إلى مرحلتها الركامية إلا أنها هنا لمجرد إفادة العطف، والترتيب، والسببية(٣) دون الدلالة على التعقيب؛ لأن الواقع يشهد كثيرًا برؤية السحاب دون نزول المطر منه.

وفي التعبير بفعل الرؤية مع الخطاب في قوله: (فترى) دون: فيخرج الودق من خلاله، مزيد لفت وتنبيه لهذا المشهد الكوني العجيب الذي نراه دائما ولا نعتد به غالبا.

والودق: " المطر كله شديدة وهينة " (٤) ، فيه للعموم والجنس، إذ يشمل القوى الذي ينزل بشدة وعنف، ويشمل الضعيف الذي ينزل بهدوء ورفق.

ويحتمل أن تكون للعهد الذهني؛ تذكيرًا لهم بنزوله، واستحضارا له في أذهانهم، ولفتا وإثارة لهم نحو الاعتبار بمشهد خروجه من بين تلك السحب المتراكمة.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٣) إذا عطفت الفاء جملة على جملة – كما هنا – دلت على السببية غالبا، ولا تنافي بين كونها للسببية وكونها عاطفة . ينظر: شرح الكافية للرضي: ٣٦٦/٢ ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – وينظر : الفاء معانيها واستعمالاتها ، د. عبد المعطي جاب الله سالم : ص ٢٩ ، مطبعة الأمانة – ط الأولى – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

(٤) اللسان: ودق.

ولفظ (الودق) أجمع المفسرون على أن المراد به: المطر [1]، ولكن السؤال لماذا آثر النظم التعبير بـ (الودق) دون (المطر) الذي أبان المفسرون به عن معنى الكلمة؟

والإجابة على ذلك تتضح من خلال النظر والتأمل في الآيات التي وردت فيها لفظ (الودق) في القرآن الكريم، وقد تبيَّن أنه لم يرد إلا في موطنين اثنين، الآية الكريمة محل الدراسة، والأخرى في سورة فاطر في قوله – تعالى–: {ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾} [2].

والواضح من البيان القرآني أنه يفرِّق بدقة بين هذين اللفظين (الودق والمطر) في استعمالهما في سياقاتهما المتعددة، فلفظ (الودق) يعبر به القرآن عن اللحظة الأولى لإخراج المطر ونزوله من بين تلك السحب، دون تَعَرُّضٍ لما يتعلَّق به من منافع، ولذلك يعبر معه بلفظ (يخرج)، وخرج الشيءُ: " برز من مقره، أو حاله سواء كان مقره دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا ، وسواء كان حاله في نفسه، أو في أسبابه الخارجة " [3]. بخلاف لفظ (المطر)، ومشتقاته كـ (أمطرنا)، و(أمْطِر)، و(مُمْطِرُنَا) فلم " يستعمله القرآن إلا في مقام العذاب والانتقام مِنْ المعرضين عن رسالات الله،

(١) ينظر: الكشاف : ٢٩٩/٣ ، وتفسير ابن كثير : ٣٠٤/٣ ، وتفسير الرازي : ٤٠٣/٢٤، وتفسير أبي السعود : ١٠٠/٤ .

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٣) المفردات : ١٥١ .

وفي مقام الأذى والابتلاء إذا ورد في سياق الحديث عن المؤمنين كما في قوله – تعالى–: {إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ}" [1].

وجملة: (يخرج من خلاله) حال من الودق، وساقها النظم في ثوب المضارعة لاستحضار تلك الحال العجيبة، وتلك الصورة التي في غاية العجب؛ حيث خروج المطر من بين تلك الكتل الركامية من السعاب، وهي صورة تأخذ بالقلب، وتستولي على الخيال لمن رآها رؤيا مباشرة من أهل الاختصاص من خلال وسائل الاستطلاع والبحث الحديثة.

و(من) في قوله: (من خلاله) ابتدائية، أي: مبتدئا من خلاله، و(خلاله)، كما ذكر عدد من المفسرين: فتوقه ومخارجه التي حدثت بالتراكم والانعصار [2].

والذي أثبته العلم يكشف في دقة متناهية روعة الإعجاز القرآني في اصطفاء تلك الكلمة؛ حيث ثبت أن المطر لا يخرج من جُرْم السحابة كلها، أو من جميع

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٢. دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، مناهج تطبيقية في توظيف اللغة ،د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني : ٩٧ ، وينظر: ص : ٩٥– ٩٨ – مكتبة وهبة، ط أولى ، ١٤١٧ هـ– ١٩٩٦ م . وقد فرَّق أستاذنا بين الاستعمال القرآني للفظتي (المطر والغيث ) ، ولم يتعرض للتفرقة بينهما وبين لفظتي ( الودق ) و( الماء ) وأضيف هنا: أن البيان القرآني يؤثر استعمال لفظ ( الماء ) مقترنًا بإنزاله من السماء دائمًا عند قصد الإفادة منه ، وتحصيل المنافع من ورائه ، مثل : إخراج الثمرات ، وإحياء الأرض الميتة، أو التطهر به ، وغير ذلك من الفوائد ، يراجع آيات البقرة : ٢٢ ، ١٦٤ ، والأنعام : ٩٩ ، والأنفال :١١، والرعد : ١٧ ، وإبراهيم : ٣٢ ، والحجر: ٢٢ ، والنحل : ١٠ ، وطه : ٥٣ ، والمؤمنون : ١٨ ، والفرقان : ٤٨ ، والنمل : ٦٠ ، والعنكبوت : ٦٣ والروم : ٢٤ ، ولقمان : ١٠ ، وفاطر : ٢٧ ، والنبأ : ١٤ .

(٢) ينظر: البحر المحيط : ٥٥/٨ ، والكشاف : ٢٩٩/٣ ، والقرطبي : ٢٨٧/١٢ ، وأبا السعود: ١٠٠/٤ .

مخارجها، كما ذكر المفسرون، بل يتدفق من وسط الغيمة، حيث ثقل مركزها[١]، وهذا يتفق مع الدلالة اللغوية لهذا اللفظ، ففي المفردات: " الخَلَل: فرجة بين الشّيئين، وجمعه خِلَال، كخلل الدّار، والسّحاب، والرّماد وغيرها، قال – تعالى– في صفة السّحاب: {فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ}[٢]،... {وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ}[٣]، أي: سعوا وسطكم بالنّميمة والفساد"[٤]

وقد أشار الشيخ القرطبي إلى معنى (الوسط) في تفسيره ، فقال: " وتقول كنت في خلالِ القوم، أي: وسطهم "[٥]، وكذا البغوي في تفسيره[٦].

ولما ذكر – سبحانه – المطر النافع بقوله: " فترى الودق يخرج من خلاله " أعقبه بذكر الضار منه فقال: {وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ}.

## موازنة وفروق:

وقبل استجلاء خصائص النظم في الجملة الكريمة، يطرح السؤال نفسه: لماذا استطردت آية النور إلى ذكر الضار، وهو البرد، بينما كان التعقيب في آية الروم

(١) أفدت هذه المعلومة من محاضرة صوتية على موقع اليوتيوب بعنوان : حوار العلم والإلحاد، عبد الدائم الكحيل: حلقة ٢ – ٣ شاهد تصوير القرآن للودق يخرج من وسط الغيمة : https://www.youtube.com/watch?v=LQSq٩DT–

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٤) المفردات :١٥٩ بتصرف .

(٥) تفسير القرطبي : ٢٨٧/١٢ .

(٦) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي:٤٢١/٣ ، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ

ببيان حال العباد عند نزول المطر من الاستبشار والفرح بقوله: {فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾}[1]؟.

وأقول: إن السياق في آية الروم سياق امتنان وعطاء، وتعداد لنعم الله وآياته المتوالية التي تكررت بصورة لافتة في السياق الكلي للسورة، ولذا ناسب أن تختم الآية ببيان حال الناس عند استقبالهم لهذه النعمة الجديدة من الاستبشار، بعد أن أصابهم اليأس والحزن، ولذا جاء عقب الآية: { فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ}[2] بخلاف آية النور، فهي وإن كانت في سورة النور، إلا أن السياق الكلي فيها تجد فيه معاني الحسم والحزم والشدة؛ حيث تقرر عددا من الأحكام والضوابط التي يحتاجها المجتمع المسلم حتى يشيع نور الله في جناته، وينتشر عبق الإيمان في أرجائه.

ولاشك أن هناك من يعادي تلك الأحكام ، ويعترض على هذا النور، ولذا ناسبه أن تشير إليه الآية بذكر الضار من المطر (البرد)، كما أشارت إلى النافع بذكر (الودق)؛ تناسبًا مع حال الذين اهتدوا إلى جلال هذا النور، وتمسكوا بتلك الأحكام والآداب، واقرأْ السياق السابق على الآية مباشرة تجد رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة... وتجد كفارًا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء... ومن هنا كان الاستطراد في الآية الكريمة بذكر " الودق والبرد" من التناسب الخفي لحال كلا الفريقين، بل إن شئت فقل: هو أقرب إلى اللف والنشر المرتب.

يضاف إلى ذلك: أن القرآن الكريم لم يشر إلى هذا النوع من الماء الضار، والذي يتشكل في صورة البرد إلا في سياق هذه الآية محل الدراسة، وهذا مما يتفق

(١) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٠.

ويتناسب مع طبيعة السحب الركامية، بخلاف آية الروم، فالسحب لم تصل إلى تلك المرحلة؛ حيث كانت المرحلة السابقة لنزول الودق، كما قال – سبحانه- {وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ}[1]، وهذه السحب التي صارت (كسفًا) لا تُنْتِجُ بردًا، كما أكد العلم الحديث؛ حيث ثبت أن " البرد لا يتكون إلا في داخل نوع واحد من السحب، تسمى المزن الركامية، لها امتدادات في السماء تظهر لمن يراها من بعيد أو من أعلاها كأنها الجبال، وهو ما أظهرته الصور التي تمَّ التقاطها من الطائرات والأقمار الصناعية" [2].

والجملة الكريمة( وينزل من السماء من جبال ...) معطوفة على قوله – سبحانه-: {يُزْجِى سَحَابًا}[3] للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظا ومعنى، وهذا الوصل يؤذن ببالغ قدرته – سبحانه – فهو الذي يخرج المطر النافع من تلك السحب، وهو أيضًا الذي يخرج البرد الضار منها مع أن مصدرها واحد.

والمراد بالسماء هنا ليس حقيقة هذا اللفظ من السماء المعروفة، بل يراد به السحاب؛ لأن كل ما علا المرء فهو سماء، والتعبير بلفظ (جبال) على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، والتعبير بهذا المجاز دقة في التصوير يكشف عن عظمة تلك الكتل الركامية من السحاب، ويبرز ضخامتها، وشدة ارتفاعها[4]، وأنها

(١) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٢) مقال بعنوان: (وينزل من السماء من جبال فيها من برد)، الدكتور/ منصور العبادي أبو شريعة، يناير/٢٠٢٠، موقع إعجاز القرآن والسنة: https: //quran-m. com/

(٣) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٤) أثبت العلم أن " هذه السحب الركامية يبلغ ارتفاعها ١٠ كم أو أكثر أحياناً، يعني هي تضاهي تماماً ارتفاع الجبال،.... والجبال التي تتشكل من الغيوم الركامية تعطي أشكالاً تشبه الجبال قاعدته عريضة من الأسفل، وفي الأعلى تجد هنالك قمماً مرتفعة. والذي يسافر بالطائرة

ليست مجرد سحب متناثرة، بل طبقات يعلو بعضها بعضا في تصوير مبدع يكشف عن عظيم قدرته، وبالغ سلطانه – سبحانه –.

وبناء على ما سبق: لا أميل إلى ما استظهره الشيخ أبو حيان من أن في السماء جبالا من برد خلقها الله كما خلق جبالا في الأرض من حجر [١]، وكذلك ما ذكره صاحب البحر المديد من أن " حمل اللفظ على حقيقته أولى، إنْ لم يمنع من ذلك مانع، ولا مانع هنا، فيحمل على ظاهره وإن الله خلق جبال برد في السماء"[٢].

ومن اللافت في نظم الجملة الكريمة تكرار (من) ثلاث مرات فما دلالة كل حرف في موضعه؟ يقول الشيخ الزمخشري: " فإن قلت: ما الفرق بين (من) الأولى والثانية والثالثة في قوله: (من السماء) (من جبال) (من برد) قلت: الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة للبيان، أو الأوليان للابتداء، والآخرة للتبعيض، ومعناه أنه ينزل البرد من السماء أكبر من جبال فيها، وعلى الأول: مفعول (ينزل) من جبال " [٣].

---

وينظر إلى الغيوم من تحته يلاحظ هذه القمم"، مقال عن المطر على موقع خفايا الغيوم، على الرابط الإلكتروني:

https: //sites. google. com/site/secretsofclouds/rains

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/٥٥.

(٢) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة : ٤/٥١ ،المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ

(٣) الكشاف: ٣/٢٩٩-٣٠٠ ، وفي معنى هذه الحروف وجوه أخرى ، ينظر إليها في : البحر المحيط : ٨/٥٥ ، والمحرر الوجيز : ٤/١٨٩ ، وتفسير الرازي : ٢٤/٤٠٣ ، و تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) : ٢/ ٥١١ ، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م، وتفسير أبي السعود : ٤/١٠٠ .

والذي أميل إليه وأرتضيه أن تكون (من) الأولى: لابتداء الإنزال من السماء وهذا ما اتفقت عليه كلمة كل المعربين والمفسرين ، أما (من) الثانية والثالثة فهي للتبعيض، أي: وينزل من السماء من بعض جبال فيها بعض برد، وهذا ما صرحت به كلمةُ العلمِ مؤخرًا؛ حيث ثبت أنه ليست كل الجبال (الغيوم) تحوي حبات البرد، بل هناك أماكن محددة يتموضع فيها البرد، وهذا يؤيد القول بالتبعيض في (من) الثانية، أما ما يؤيد معنى التبعيض في (مِن) الثالثة فهو ما ذكره أهل الاختصاص من أنه" ليست كل حبات البرد تسقط على الأرض، فقد تتشكل مليون حبة برد ، ولا يسقط منها إلا حبة واحدة أحياناً؛ لأن حبة البرد تتشكل في ظروف عنيفة جداً، تيارات هوائية تبلغ سرعة هذه التيارات أكثر من مئة وستين كيلو مترا في الساعة، ودرجة الحرارة تنخفض إلى ما دون الصفر، وفي هذه الظروف العنيفة جداً تتشكل حبة البرد وتلتف وتتقلب حول نفسها" [(١)].

إنها دقة عجيبة ومتناهية تقتضي أن يستدعي – سبحانه – عقولنا إلى إعمال النظر فيها، وتستوجب على كل ذي بصيرة أن يؤمن بهذا الكتاب، وأن يعيش في رحاب نور هذا الدين، فمن أخبر النبي (ﷺ) بذلك، وقد أشار القرآن إليه منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان؟!!

وتتبدى دقة الترتيب بين هذه القيود الثلاثة في الترقي من الأعظم جُرمًا، والأكبر حجمًا، إلى ما دونه، فالسماء رقعة السحاب فيها أوسع، وهي نقطة الابتداء لتلك الصورة العجيبة، ويليها صورة الجبال المستقرة والكائنة فيها، ومن تلك الجبال ذات الغيوم المتكاثفة تتشكل حبة البرد.

(١) مقال بعنوان: معجزة تشكل البرد.. إشارات قرآنية رائعة، موسوعة الكحيل للإعجاز في القرآن والسنة، على الرابط الإلكتروني: https: //kaheel٧. net/?p=٦٧٩٢.

ثم رتَّب – سبحانه – على نزول هذا البرد قوله: {فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ}[1] أي: فيصيب بهذا البرد من يشاء، فيلحق به الهلاك والمضار، ويصرفه عمن يشاء فينجو من غائلته وضرره، والتعبير بالإصابة يُشْعِر بما يترتب عليه من ضرر بالغ، ومكروه محقق، والتعبير بـ (يصرفه) يشعر برحمة الله (ﷻ)، إذ لو شاء أن يصيب به الجميع لأصاب، وقد جاء الطباق بين الفعلين كاشفا عن طلاقة قدرة الله (ﷻ) في إيقاع كلا الفعلين حسب إرادته ، ولذا علق الأمرين بفعل (المشيئة)؛ إبرازًا لمعاني القدرة في أجل وأقوى دلائلها، وجاء التعبير بـ (من) التي للعقلاء؛ تغليبًا؛ إذ البرد لا يصيب الإنسان وحده، بل يصيب الزروع والثمار والجماد، ولكن آثر النظم جماعة العقلاء؛ لأنهم المقصودون من الاعتبار بتلك الصور المتعددة في هذا المشهد الكوني العجيب الذي رسمته الآية؛ وصولًا بهم إلى دلائل القدرة المستوجبة الإقرار بتوحيد الله (ﷻ) والإذعان له بالعبودية، كما ازدان النظم بهذا التقسيم البلاغي الرائق؛ حيث استوفت الجملة الكريمة كل الأقسام التي يشملها عموم البرد النازل من السماء، فهو إما أن يصيب من يشاء الله أن يصيبه، أو يُصَرف عمن يشاء الله له ذلك، ولا ثالث لهذين القسمين، " وأسلوب التقسيم من البلاغة في الصميم وقد اعتبره عبد القاهر من باب النظم الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع"[2].وتتصاعد معاني القدرة، وإدخال الصورة والترقي بها

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د/ أحمد إبراهيم موسى : ٤٨٢ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

إلى ما هو أعجب وأقوى في بث التهديد في نفوس المعرضين والجاحدين في فاصلة الآية الكريمة {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ }[1].

والذي عليه جمع المفسرين أن الضمير في (برقه) يعود على (سحابا) أي: ضوء برق السحاب الموصوف بما مرَّ من الإزجاء والتأليف وغيرهما [2]. والذي دفعهم إلى ذلك هو الاعتقاد الشائع، وما نراه باديا أمام أعيننا جميعا في الظاهر من أن ظاهرة البرق تقترن بوجود السحاب وحدوث عملية المطر، ولكن الذي أثبته العلم حديثا أن البرق يرافق البرد " فالعلماء يقولون: عن البرق بالحرف الواحد إن البَرَد لا يتشكَّل إلا في الغيوم الرعدية التي تحدث فيها ومضات برق بشكل دائم، فلا يمكن لحبة برد أن تتشكل من دون ومضة برق؛ لأن التفاف هذه القطيرات من الماء (آلاف الملايين من قطيرات الماء تلتف وتدور حول نفسها لتشكل حبة برد صغيرة جداً) يتطلب حقولاً كهربائية لا تتوافر إلا في بيئة البرق. وهذه الحبات من البرد لا تتشكل إلا إذا حدثت ومضات برق، والغيوم الرعدية الركامية هي بشكل دائم يحدث فيها هذه الضربات البرقية أو ومضات البرق هذه" [3].

وعلى هذا: فالضمير يعود على أقرب مذكور، أي: يكاد سنا برق هذا البَرَدِ...، والجملة صفة لـ (برد) وليست صفة لـ (سحابا) كما ذكر الطاهر بن عاشور [4].

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٢) ينظر: تفسير الطبري : ٢٠٣/١٩ ، وتفسير البغوي : ٤٢١/٣ ، وتفسير أبي السعود : ١٠١/٤ ، والتحرير والتنوير ٢٦٢/١٨ .

(٣) مقال بعنوان: معجزة تشكل البرد.. إشارات قرآنية رائعة، موسوعة الكحيل للإعجاز في القرآن والسنة، على الرابط الإلكتروني: https: //kaheel٧. net/?p=٦٧٩٢.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير : ٢٦٢/١٨ .

ووجه الاستدلال بهذه الجملة على القدرة كما ذكر الشيخ الرازي: "أَنَّ الْبَرْقَ الَّذِي يَكُونُ صِفَتُهُ ذَلِكَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ نَارًا عَظِيمَةً خَالِصَةً، وَالنَّارُ ضِدُّ الْمَاءِ وَالْبَرَدِ فَظُهُورُهُ مِنَ الْبَرَدِ يَقْتَضِي ظُهُورَ الضِّدِّ مِنَ الضِّدِّ، وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِقُدْرَةِ قَادِرٍ حَكِيمٍ"(١).

والجملة الكريمة يتجلى فيها دقة النظم القرآني في اختيار مفرداتها وجميع لبناتها التي شكلتها، فالتعبير بفعل المقاربة (يكاد) يؤذن بأن الفعل (ذهاب سنا البرق بالأبصار) لم يقع، بل قرب أن يقع ما هو قريب منه؛ لأن " هذا الشعاع إذا نزل على العين مباشرة غالباً يسبب العمى المؤقت، ونادراً ما يذهب بالبصر بشكل كامل، لذلك قال –تعالى–:(يكاد) أي: يقرُب" (٢)، وهذا قبل أن يكشف عن عظيم قدرة الله، يكشف عن عظيم فضله ورحمته .

كما يلحظ أن النظم الكريم أسند الإذهاب بالأبصار إلى سنا البرق، ولم يسنده إلى البرق ذاته فيقال: يكاد برقه... وهذا من رحمة الله (ﷻ)؛ لأن البرق إذا أصاب الإنسان مباشرة لا يَذْهَبُ بصره فحسب، بل يحترق ويتفحم على الفور (٣).

والتعبير بـ (سنا) دون: ضوء برقه؛ لأن السنا هو الأدق في تصوير تلك الظاهرة، لما تتسم به طبيعته من شدة السطوع في ومضات خاطفة متتالية سريعة

(١) تفسير الرازي : ٤٠٣/٢٤.

(٢) إشارات قرآنية رائعة، موسوعة الكحيل للإعجاز في القرآن والسنة.

(٣) ثبت " أن الإنسان إذا أصابه شعاع البرق مباشرة فإن درجة حرارته ترتفع بشكل مفاجئ من ٣٧ درجة مئوية إلى ٣٠٠٠٠٠ درجة مئوية، وهذا هو ما عبر عنه القرآن بلفظ(الصواعق): {وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ} [سورة الرعد: ١٣] هذه الصاعقة تبلغ درجة حرارتها ٣٠٠٠٠٠ درجة مئوية أي أكثر من حرارة سطح الشمس بخمسة أضعاف" مقال بعنوان: معجزة تشكل البرد.. إشارات قرآنية رائعة، موسوعة الكحيل للإعجاز في القرآن والسنة.

جدًا، يقول الراغب: " السنا: الضوء الساطع، والسنا الرفعة " [1]، بخلاف الضوء فهو " ما انتشر من الأجسام النيرة " [2]، وانتشار الضوء يُضْعِف من شدة الإنارة، ومن هنا آثر النظم التعبير بما هو أليق وأنسب لعملية البرق.

والإضافة في (برقه) تفيد تخصيص البرق بما هو أقرب مذكور، وهو (البرد)، وإشارة علمية قاطعة منذ أن نزل القرآن إلى اقترانهما، ولو قيل: يكاد سنا البرق..، لظلَّت كلمةُ (العلم) [3] مشكوكًا فيها، وما اتسقت مع هذا الإعجاز العلمي المبهر في الآية الكريمة.

**موازنة وفروق**:

والجملة الكريمة تتشابه في نظمها مع قوله – سبحانه – في سورة البقرة { يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ } [4] مع اختلافٍ في نظم كل جملة اقتضاه السياق والمقام في كلا الموضعين، وتظهر أوجه الاختلاف في الأتي:

- جاء التعبير بـ (البرق) في البقرة، بينما جاء التعبير بـ (سنا برقه) في النور.
- جاء التعبير بـ (يخطف أبصارهم) في البقرة، بينما جاء التعبير بـ (يذهب بالأبصار) في النور.

ولعل سر تلك المغايرة في كلا الموضعين هو اختلاف السياق والمقام في كل، فآية البقرة جاءت في سياق ضرب الأمثلة الكاشفة عن هيئة المنافقين وحالهم، ولذا كان التعبير بـ (البرق) أنسب؛ لأنه نذير بالصواعق المهلكة، وكذلك كان

(١) المفردات : ٢٥٠ .

(٢) السابق : ٣٠٣.

(٣) المقصود بكلمة العلم هنا : ارتباط ظاهرة البرق مع البرد ، وليس مع السحاب كما هو متعارف.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

التعبير بـ (يخطف أبصارهم) هو الأنسب لمقام التهديد، لما يشعر به لفظ (يخطف) من معاني القوة، والمباغتة، وشدة السرعة، كما أسند الخطف إلى جملة الأبصار، مضافة إليهم(أبصارهم)؛ لأنهم المقصودون بهذا التهديد، كما تناغم التعبير بتلك الجملة مع ألفاظ الآية التي قبلها الناطقة بالرعب والتهديد (ظلمات –رعد – برق – الصواعق – الموت – محيط).

بخلاف آية النور، فالسياق فيها سياق امتنان وحث على الاعتبار والتأمل في تلك الآية العجيبة الناطقة بالقدرة الإلهية، والداعية إلى الإيمان به، والانقياد إليه – سبحانه – وقد اقتضى ذلك السياق التعبير بلفظ (سنا) الدال على شدة الضياء، والمناسب لتصوير هذا المشهد الكوني، تصويرًا واقعيًا دقيقًا، يضاف إلى ذلك: أن التعبير به مما يتناغم مع اسم السورة ذاتها، وما فيها من آداب تنشر النور والضياء في أرجاء الكون كله، كما اقتضى السياق عدم المبالغة في استلاب الأبصار، فجاء التعبير بـ (يذهب) دون (يخطف)، يقول الشيخ الطاهر: " وَأَمَّا التَّعْبِير هُنَا بِـ (الْأَبْصار) مُعَرَّفًا بِـ (اللَّام)؛ فَلِأَن الْمَقْصُود أَن الْبَرْق مُقَارِب أَنْ يُزِيل طَائِفَة مِنْ جِنْس الْأَبْصَار؛ إِذ اللَّام هُنَا لَام الْحَقِيقَة، كَمَا فِي قَوْلِه: {أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ}[1]، وَقَوْلُهُمْ: ادْخُل السُّوق؛ لِأَن الْحُكْم عَلَى حَالَة الْبَرْق الشَّدِيد مِنْ حَيْث هِي. بِخِلَاف آيَة الْبَقَرَة، فَإِنَّهَا فِي مَقَام التَّوْبِيخ لَهُمْ بِأَن مَا شَأْنُه أَنْ يَنْتَفِع النَّاس بِه قَدْ أَشْرَف عَلَى الضُّر بِهِمْ؛ فَلِذَلِك ذَكَر لَفْظ (أَبْصَار) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِهِمْ " [2].

(١) سورة يوسف، الآية: ١٣.

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٣).

ويمضي السياق كاشفا عن دليل آخر من دلائل القدرة فيقول – سبحانه-: {يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤}[1]، يقول الشيخ الطاهر: "وَالْكَلَامُ اسْتِئْنَافٌ. وَجِيءَ بِهِ مُسْتَأْنِفًا غَيْرَ مَعْطُوفٍ عَلَى آيَاتِ الِاعْتِبَارِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ الِانْتِقَالُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِمَا قَدْ يَخْفَى عَلَى بَعْضِ الْأَبْصَارِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ كُلُّ ذِي بَصَرٍ، كُلَّ يَوْمٍ، وَكُلَّ شَهْرٍ، فَهُوَ لَا يَكَادُ يَخْفَى عَلَى ذِي بَصَرٍ"[2].

ويضاف إلى علة الاستئناف التي ذكرها الشيخ الطاهر، أن السياق يكشف عن بعض آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته، والداعية إلى الاعتبار بها، ومن هنا اقتضى المقام سرد كل آية تلو الأخرى دون عاطف؛ إشارة إلى أن كل آية كافية وحدها في الاعتبار والاتعاظ، وجاءت الثانية بعد الأولى تصعيدًا وترقيًا بما هو أدخل وأعجب في باب القدرة وذلك على منهج القرآن في الارتقاء في الاستدلال، ولو جاءت الثانية معطوفة على الأولى لأشعر ذلك التعداد بأن الاعتبار والاستدلال إنما يكون بالنظر فيهما معًا.

والمعنى في {يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ}، أي: " يعقب الله بين الليل والنهار ويصرفهما، إذا أذهب هذا جاء هذا، وإذا أذهب هذا جاء هذا " [3].

ولفظة (يقلب) دقيقة في تصوير هذا المعنى، وتحديده بدقة تختلف عن ألفاظ (الاختلاف الإيلاج، والإغشاء، والتكوير) [4]. وغير ذلك من المفردات التي أوردها

(١) سورة النور، الآية: ٤٤.

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٤)

(٣) تفسير الطبري:١٧/ ٣٣٩

(٤) جدير بالذكر: الإشارة هنا إلى أن مثل هذه الألفاظ (اختلاف –يولج–يكور – يغشي – يقدر) المتعلقة بالليل والنهار، مما يحتاج إلى دراسة مستقلة في القرآن الكريم تكشف عن سر =

القرآن الكريم متعلقة بظاهرتي الليل والنهار، يقول الراغب: " قَلْبُ الشيء: تصريفه، وصرفه عن وجه إلى وجه، كقلب الثّوب، وقلب الإنسان، أي: صرفه عن طريقته... وتَقْلِيبُ الشيء: تغييره من حال إلى حال... وتَقْلِيبُ الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي" (١).

**موازنة وفروق**:

وإن قيل: لماذا كان بناء الآية على الفعلية {يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ} ولم يكن على الاسمية (والله يقلب الليل والنهار) مع ما فيها من الدلالة على التقرير والتأكيد؛ لما فيها من تكرار الإسناد، وذلك كقوله – سبحانه– في آية المزمل: {وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ} (٢)؟

قلت: إنما جاء بناء الآية على الفعلية بالبدء بالفعل (يقلب)؛ لأن السياق يتجه إلى بيان تلك الآية العجيبة من تعاقب الليل والنهار، ومجيء أحدهما بعد الآخر في تقلب دائم ومستمر دون تخلف، وناسب ذلك البدء بالكلمة الأهم في تصوير الحدث؛ جريًا على تقديم ما هو أهم في الذكر، كما أن السياق لا يحتاج إلى التقرير والتأكيد المفاد من بناء الجملة الاسمية؛ إذ لاشك حول تلك الظاهرة البادية للعيان حتى يؤكد الخبر المساق للإبانة عنها.

---

= إيثار هذه اللفظة دون تلك، وكيف استدعاها السياق والمقام ، وبيان المعنى المترتب على كل لفظ.

(١) المفردات في غريب القرآن : (ص: ٦٨١، ٦٨٢).

(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

أما بناء الجملة على الاسمية في سورة المزمل {وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ} فآيتها هي الآية الأخيرة من السورة {إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ}[1] نزلت بعد عام من نزول مطلع السورة الكريمة على أرجح الأقوال[2] ، الذي يدعو النبي (ﷺ) ويحثه على قيام الليل حتى يتزود بالزاد الروحي الذي يمكنه من مواصلة وتحمل أعباء الدعوة، فلما أثقل النبي (ﷺ) على نفسه نزلت الآية الكريمة تخفيفا وامتنانا وتطمينا، وفيضا بالغا من الحنان والشفقة عليه، ومن ثم اقتضى السياق البدء باسم الجلالة، وكأن الحق – سبحانه– يقول لنبيه: إن أمر تقدير الليل والنهار بيدي، وأنا المتصرف في ذلك، وليست العبرة بالتطويل أو التقصير في القيام، بل العبرة في خضوع القلب وخشوعه، وإذعانه وإجلاله لمقدر الليل والنهار.

ثم تختم الآيات بالحث على التأمل والاعتبار (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)، والإشارة في (ذلك) إلى عموم ما ذكرته الآيتان من دلائل القدرة أي: " إن في إنشاء الله السحاب، وإنزاله منه الودق، ومن السماء البرد، وفي تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظة لمن اتعظ به ممن له فهم وعقل "[3] .

والتعبير باسم الإشارة الذي للبعيد يؤذن بعلو رتبة الأمور المشار إليها، وبعد منزلتها في الدلالة على قدرة الله (ﷻ) الكاشفة عن أن هذا الكون له مدبر حكيم، ينبغي أن تذعن النفوس لجلاله، وتشهد له القلوب بالوحدانية، وتعترف له بالقيومية.

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٢) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي : ٣٥٤ ،تحقيق : ياسر كمال عزب – المكتبة التوقيفية – بدون . وينظر : في ظلال القرآن، سيد قطب : ٣٧٤٨/٦ .

(٣) تفسير الطبري : ٣٣٨/١٧ ، وينظر: تفسير القرطبي : ١٢ / ٢٨٧ ، وتفسير النسفي : ٥١١/٢ ، وتفسير أبي السعود : ١٠١/٤ .

وجاء التعبير بـ (عبرة) مفردة مع أن ما ساقته الآيتان ملئ بالعبر؛ وذلك بالنظر إلى مجموعها، ونكرت تفخيمًا وتعظيمًا، وخصت بأولي الأبصار؛ لأنهم أهل الاعتبار والانتفاع بتلك الآيات البالغة في الدلالة على القدرة، وفي ذلك تعريض بالنفوس المريضة بالكفر والجحود، والتي لم تشهد نور الله في الوجود، ولم تلتفت إلى دلائل القدرة المبثوثة فيه.

كما ازدان النظم بما أضفاه الجناس التام من النغم المنبعث فيه بين لفظة (الأبصار) في خاتمة الآية الأولى؛ إذ هي بمعنى (العيون)، ولفظة (الأبصار) في خاتمة الآية الثانية؛ إذ هي بمعنى (العقول والأفهام)، وكان له أثره ووقعه الجذاب في لفت النفوس، وإيقاظ القلوب، نحو الاعتبار بتلك الآيات العظيمة، التي تراها تتكرر أمام أعيننا، ولكن لا يتعظ بها ويعتبر إلا أولوا الأبصار والأفهام.

**موازنات وفروق**:

وقبل أن أطوي صفحات هذا البحث أجد عدة أسئلة تطرح نفسها، وتُلحُّ على عقلي؛ لأنها من صميم تتمة هذه الدراسة، ومفادها:

- لماذا كانت العبرة خاصة بأولي الألباب في سورة يوسف { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ }[1]، ولم تكن لأولي الأبصار، كما هو الشأن في آيات الدراسة؟
- ولماذا كانت العبرة مطلقة دون تقييد في آيتي النحل والمؤمنون { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً }[2]؟

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٦ ، وسورة المؤمنون ، الآية : ٢١ .

- ولماذا كانت العبرة مقيدة بمن يخشى في سورة النازعات {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾}[1] ؟

وقبل الإجابة عن تلك الأسئلة التي تطرح نفسها أقرر أنني لم أجد لها إجابة عند العلماء الذين تعرضوا لدراسة متشابه النظم في القرآن الكريم، ولذا أقول مستعينًا بالله – تعالى –: أما عن تخصيص العبرة بأولى الألباب في آية سورة يوسف، فالآية الكريمة جاءت في ختام السورة لتُسْدِل الستار على أحداث تلك القصة التي استغرقت السورة كلها منذ بدئها حتى نهايتها تقريبا، وجاءت تلك القصة بهذا النسق متفردة من بين القصص القرآني، وعلى غير العادة في عرضه للقصة في عمومها.

أقول: هذا الاستغراق الطويل لأحداث تلك القصة لا يحتاج إلى مجرد عقل يفكر في أمر طارئ، أو حادث معين محدد، أو عقل يُرَكِّز النظر على جزئية معينة من أحداثها، بل يحتاج إلى عقل متوقد، وفكر صاف، وذهن خال من الشواغل، ينظر في عموم القصة بكل دقائقها وتفاصيلها، وكل لقطة من لقطاتها، وكل حدث من أحداثها، يغوص في لبه وجوهره، ويقف على مواطن العبرة والعظة فيه، ومن هنا كانت دقة البيان القرآني في تخصيص العبرة بأولي الألباب خاصة في هذا السياق؛ دلالة على أن إدراك العبرة فيه مما يحتاج إلى عقل ذي طبيعة خاصة، وهذا يتفق مع المدلول اللغوي للفظ (لُب) يقول الراغب: " اللب: العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من قواه، كاللباب من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكل لب عقل، وليس كل عقل لباً، ولهذا علق الله – تعالى– الأحكام التي لا تدركها إلا العقول الزاكية بأولي الألباب، نحو قوله: {يُؤْتِي

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٦.

ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾} " [1] .

أما عن سر مجيء العبرة مطلقة دون تقييد في آيتي النحل والمؤمنون { وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ } [2] أن الآيتين جاءتا في مقام تقرير الألوهية لله (ﷻ) وحده من خلال استعراض عدد من الآيات الدالة على بالغ القدرة والناطقة بوحدانيته، ومن بينها عبرة الأنعام، بما فيها من آية عجيبة فائقة في العجب؛ حيث تشير إلى ما كان عليه حال هذا اللبن قبل أن يصبح لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؛ إذ كان كما يصور القرآن (بين فرث ودم) بهذه الصورة التي لا يمكن للعقل البشري أن يتخيل أن تتحول إلى لبن بتلك الصفة المخصوصة التي جاء عليها البيان القرآني {لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين}، وكيف تتحول الصورة من أمر تستقذره النفوس إلى أمر مرغوب مساغ تطيب له الأذواق والأرواح؟، هذه الآية العجيبة دليل دامغ يشهد بوحدانية الله (ﷻ)؛ لعموم الناس جميعًا، وكأن الآية تخاطب الفطرة الإنسانية في عمومها، ومن ثم جاءت العبرة مطلقة غير مقيدة بصنف معين كأولي الألباب، أو كأولى الأبصار مثلا، ومن هنا جاء الخطاب في الآيتين بعمومه (وإن لكم) مناسبًا لمقام الامتنان بتلك الآية العجيبة التي ينهل من فيض عطائها الجميع، المسلم والكافر على السواء.

(١) المفردات : ٤٤٩ ، والآية سورة البقرة، رقم: ٢٦٩

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٦.

أما عن سر تخصيص العبرة بمن يخشى في آية النازعات: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾}[1] أن الآية جاءت في مقام الترهيب، إذ الإشارة فيها إلى صورة العذاب الذي أنزله الله بفرعون {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾}[2]؛ ومن ثم قُيِّدت العبرة بمن يخشى، دلالة على أن الذي يعتبر بما حل بفرعون من عذاب وتنكيل هم أهل الخشية الذين يخافون الله ويعظمونه، ويُجِلُّون سلطانه، أما أهل الغفلة والاستكبار والتجبر، فسيظلون سادرين في غيهم وطغيانهم، حتى يأخذهم الله كما أخذ فرعون بتلك النهاية الرهيبة العنيفة.

يضاف إلى ذلك: أن تخصيص العبرة بمن يخشى مما يتناغم مع شيوع هذا اللفظ وتكراره في سياق السورة، مثل قوله - تعالى-: {أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}[3]، وقوله: {وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ}[4]، وقوله -جل شأنه-: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا}[5]، وتكرار هذا اللفظ بتلك الصورة اللافتة في السورة الكريمة مما يتناسب مع المقصد الأول من ورائها، وهو الترهيب والتخويف من أحداث يوم القيامة، وما فيه من أهوال وشدائد لا ينجو منها إلا من يعظمون الله، ويخافونه، ويخشون لقاءه وحسابه، والله أعلى وأعلم.

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٦.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٥.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٩.
(٤) سورة النازعات، الآية: ١٩.
(٥) سورة النازعات، الآية: ٤٥.

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،

فمن خلال معايشتي لمقامات الاعتبار لأولي الأبصار في القرآن الكريم بالتناول البلاغي يمكن إجمال أهم النتائج التي توصلت إليها تلك الدراسة في الآتي:

١- ورد لفظ (عبرة) إجمالًا ست مرات في القرآن الكريم، وجاءت صيغة المضارعة (تعبرون) مرة واحدة، وكذلك صيغة الأمر (فاعتبروا).

٢- خص الاعتبار بأولي الأبصار في ثلاثة مواطن، وهي التي قامت عليها الدراسة، وجاءت العبرة مقيدة مرة واحدة بأولي الألباب في ختام سورة يوسف، وجاءت مقيدة بـ (من يخشى) مرة واحدة أيضا في سورة النازعات في ختام التعقيب على قصة موسى – عليه السلام – ونهاية فرعون، بينما جاءت غير مقيدة في موطنين اثنين في العبرة بالأنعام في سورتي (النمل والمؤمنون)، وقد كشفت الدراسة عن سر ذلك في مقامه.

٣- تبيَّن من خلال البحث أن الاعتبار عندما يُقْصَد به أولوا الأبصار يكون دائمًا في خاتمة الآيات، معقبًا به النظم على آية عجيبة، أو حدث مستغربٍ لا تتوقعه النفوس، أما في غير ذلك يكون متصدرًا الآيات {وإن لكم في الأنعام لعبرة}، وكذلك قوله تعالى: { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب }، أو يأتي في آية مستقلة {إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} تعقيبًا على نهاية أكبر طاغية عرفته البشرية في تاريخها.

٤- كان الملمح الدلالي الذي يميز مادة (عبر) عندما يُقْصَد به أولوا الأبصار هو النظر في حقيقة الشيء ليعرف من خلال هذا النظر والتأمل شيء آخر، فمثلا في مقام اعتبار أولي الأبصار في سياق غزوة بدر كانت العبرة هي النظر في حال الفئتين المتقاتلتين، وكيف انتصرت الفئة المستضعفة التي بلا زاد وقوة، على الفئة الأخرى التي تمتلك كل وسائل النصر، وذلك بفضل تأييد الله (ﷻ) للفئة المؤمنة، وكذلك كان معنى الانتقال ، والتحول من حال إلى حال، حاضرًا في المقامين الأخيرين.

٥- جاءت الجملة الداعية لأولي الأبصار إلى الاعتبار في ثوب الخبرية، وذات نظم واحد {إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} وذلك في مقامي غزوة بدر، وبيان دلائل القدرة في سورة النور، بينما عدل النظم إلى الأسلوب الإنشائي في ثوب الأمر{فاعتبروا يا أولي الأبصار} في مقام تصوير خروج بني النضير من المدينة، وقد جاء هذا الفعل مقترنا بالفاء الفصيحة الواقعة في جواب الشرط المقدر؛ وذلك تسليطًا للضوء على الاعتبار ذاته، ودعوة إلى المبادرة إليه، والامتثال به، وقد جاء أسلوب الإنشاء (فاعتبروا) مناسبًا لسياقه ومقامه؛ حيث بلغ الحدث الذي صوَّره السياق- وهو خروج بني النضير من المدينة- الغاية في العجب والغرابة؛ حيث دبر الله أمر خروجهم بلا أدنى قتال أو مواجهة، و كان بسلاح لم يخطر على بال أحد، وهو قذف الرعب في قلوبهم، فكان ذلك أدعى إلى التعبير بأسلوب الأمر الذي من شأنه أن يهز النفوس، ويلفت الأذهان إلى التأمل والاعتبار بتلك الآية العجيبة.

٦- جاء لفظ (عبرة) دائما في القرآن الكريم مفردا، كما جاء منكرًا؛ تفخيمًا وتعظيمًا للأحداث التي يصورها السياق الذي دعا إلى التعبير بهذا اللفظ.

٧- برز التعبير بالفعل المضارع بصورة لافتة في كل مقام من مقامات الاعتبار لأولي الأبصار مثل(تقاتل – يرونهم – يؤيد – يخربون– تر – يزجي – يؤلف– يجعله – فترى – يخرج – يصيب – يصرفه – يكاد– يذهب – يقلب) وقد كان التعبير به ملائما لاستحضار تلك الأحداث العجيبة ؛ ليكون ذلك أدعى إلى الاعتبار، وأخذ العظة البالغة من وراء التذكير بها.

٨- أكد البحث دقة النظم القرآني في تصويره للكتل الركامية من السحاب في صورة الجبال، وبيَّن أنها ليست جبالا حقيقية في السماء، كالجبال التي في الأرض، وقد دفع هذا الرأي الذي استظهره بعضُ المفسرين القدامى.

٩- كما بدت دقة النظم القرآني في إيثار الألفاظ الملائمة للسياق والمقام دون غيرها من بدائلها اللغوية، وقد ظهر ذلك جليا في: التعبير بلفظ (فئة) دون (طائفة) أو (فرقة)، وبين أن هذا اللفظ يُؤْثَرُ التعبير به في سياقات تصوير الحرب والقتال؛ وذلك لما يوحيه مدلوله اللغوي من معاني التناصر، والتعاضد، ووحدة الهدف والغاية، كما بيَّن البحث أن التعبير بلفظ (ديار) مقترنا بالخروج، يغلب استعمالُه في البيان القرآني مرتبطا بمعاني الخزي، والمذلة، والهوان ، والاستضعاف، بخلاف لفظ (بيت) فلم يرد إلا مرة واحدة مقترنا بفعل الخروج، وذلك في مقام الامتنان على النبي (ﷺ) بالخروج من بيته، والمشركون يحيطون به؛ تأييدًا ونصرة للحق والدعوة.

١٠- كما ذكر البحث دقة التعبير القرآني بلفظ (يؤلف) مرتبطة بالسحاب، وبيَّن أن التعبير به يعد من فرائد التعبير القرآني؛ إذ لم يرد إلا في سورة النور، وكان له دلالته التي لا تظْهَرُ في غيره من البدائل اللغوية مثل: يجمع، أو يضم، وأشار أن التعبير به يعد إعجاز علميا أكدته كلمة العلم في العصر الحديث.

١١- أشار البحث إلى أن جملة (وقذف في قلوبهم الرعب) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين، وكلاهما في شأن اليهود، وقد جاء لفظ (القذف) متناغمًا في الموضعين بما فيه من معاني الشدة والقوة مع لفظ الرعب؛ حيث كان السلاح الوحيد في إنزال الهزيمة باليهود في السياقين.

١٢- ذكر البحث أن لفظ (يزجي) لم يرد في القرآن الكريم إلا مرتين، مرة مرتبطا بالسحاب، وأخرى بالفلك، وكانت معاني الدفع برفق، وسهولة، ويسر ملازمة لكلا المقامين، ومتناغمة مع سوق السحاب ودفعِ حركة الفلك في البحر للابتغاء من فضل الله (ﷻ).

١٣- بيَّن البحث دقة التعبير بلفظ (الودق) وأنه لم يرد في القرآن الكريم إلا مرتين، وهو يختلف عن التعبير بلفظ (المطر) التي فسر بها المفسرون الكلمة، وأشار البحث أن النظم القرآني يؤثر التعبير به عند تصوير اللحظةِ الأولى لخروج المطر من الكتل السحابية، وهو يصاحب التعبير بالفعل (يخرج) وقد جاء الجرس الصوتي للكلمة ذاتها يحكي قوة الدفع به من السحاب لحظة خروجه منه.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## المصادر والمراجع


١) (إن) الرابطة وبلاغة موقعها في النظم القرآني، د. محمود عبد الله محمد صيام، بحث منشور في مجلة الدراية، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق، العدد الثاني عشر، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤ م.

٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم =تفسير العلامة أبي السعود، لـ محمد بن محمد العمادي أبو السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤) أسباب النزول للواحدي ، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٥) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، ( دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.

٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٧) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د/ عبد الله محمود شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، ١٩٨٦ م.

٨) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة. وينظر: مفتاح العلوم

للسكاكي، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م.

٩) البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي ، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

١٠) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة ، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ.

١١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: مكتبة دار التراث، الطبعة الأثنية، بدون تاريخ.

١٢) البلاغة العالية ( علم المعاني ) ، للشيخ / عبد المتعال الصعيدي ، ت: د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ، ط : ٢ ،١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

١٣) البلاغة العربية أسسها علومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، عبد الرحمن حبنكة الميداني، الطبعة: الأولى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

١٤) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، بدون.

١٥) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

١٦) تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م.

١٧) تفسير الطيب من القول، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن، ، د. رؤوف شلبي، دار الأنصار بالقاهرة.

١٨) التفسير العلمي للآيات الكونية ، حفني أحمد ، دار المعارف .

١٩) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م .

٢٠) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٢١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٢) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٢٣) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٤) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٥) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

٢٦) خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني" ، د / محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط خامسة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٧) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ت: د / عبد العظيم المطعني، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ط أولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
٢٨) الخصائص، لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.
٢٩) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي ،المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق
٣٠) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، مناهج تطبيقية في توظيف اللغة ،د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة ، ط أولى ، ١٤١٧ هـ-١٩٩٦ م .
٣١) دراسات في المعاني والبديع، د/ عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب – القاهرة.
٣٢) الدرر البهية من سيرة خير البرية (ﷺ)، د. محمد الطيب الحضري وآخر ، دار الأزهر للطباعة ٢٠٠٨-٢٠٠٩ م
٣٣) دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٣٤) ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي،الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
٣٥) روافد البلاغة (بحث في أصول التفكير البلاغي ) ، د/ سمير إستيتيه ، مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، عدد ٦ ، رجب ١٤٢٢ هـ - سبتمبر ٢٠٠١ م .

٣٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.
٣٧) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي. المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ
٣٨) سنن أبي داود المحقق: شعَيب الأرناؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.
٣٩) شرح أحاديث من صحيح البخاري ( دراسة في سمت الكلام الأول) ،د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، ط: أولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .
٤٠) شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد» لناظر الجيش، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة –جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.
٤١) شرح الكافية للرضي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
٤٢) شرح طيبة النشر للنويري ،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، تقديم وتحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.
٤٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د/ أحمد إبراهيم موسى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
٤٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٤٥) علم المعاني، د/ صباح دراز: مطبعة التركي – طنطا، طبعة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.
٤٦) الفاء معانيها واستعمالاتها ، د. عبد المعطي جاب الله سالم ، مطبعة الأمانة – ط الأولى – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٤٧) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، للقِنَّوجي، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.
٤٨) فتح القدير للشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.
٤٩) في ظلال القرآن لسيد قطب، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: الثانية عشر – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .
٥٠) القاموس المحيط، للفيروزآبادى،تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .
٥١) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.
٥٢) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي ،تحقيق : ياسر كمال عزب – المكتبة التوقيفية – بدون
٥٣) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، المحقق: الشيخ /عادل أحمد عبد الموجود ،

والشيخ/ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

٥٤) لسان العرب، لابن منظور: الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

٥٥) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

٥٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

٥٧) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المحقق: حققه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

٥٨) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي ، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٥٩) المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة،)إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار(،الناشر: دار الدعوة.

٦٠) مفاتيح الغيب ( التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٦١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

٦٢) مقاييس اللغة، للرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٦٣) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ( الفاء وثم ) للدكتور/ محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة – الطبعة الثانية -١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٧ م .
٦٤) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين ، د/ مصطفى محمد حلمي، الناشر:دار الكتب العلمية – بيروت – ط١- ١٤٢٦ هـ.
٦٥) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) لابن يعقوب المغربي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون.
٦٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي،الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٦٧) نمط صعب ونمط مخيف ، د. محمود شاكر ، دار المدني بجدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .

مواقع الانترنت:

٦٨) محاضرة صوتية على موقع اليوتيوب بعنوان : حوار العلم والإلحاد، عبد الدائم الكحيل: حلقة ٢ - ٣ شاهد تصوير القرآن للودق يخرج من وسط الغيمة :

https://www.youtube.com/watch?v=LQSq٩DT-

٦٩) مقال بعنوان: (وينزل من السماء من جبال فيها من برد)، الدكتور/ منصور العبادي أبو شريعة، يناير/٢٠٢٠، موقع إعجاز القرآن والسنة: https: ///quran-m. com

٧٠) مقال بعنوان: معجزة تشكل البرد.. إشارات قرآنية رائعة، موسوعة الكحيل للإعجاز في القرآن والسنة، على الرابط الإلكتروني: https: //kaheel٧. net/?p=٦٧٩٢.

٧١) مقال عن المطر على موقع خفايا الغيوم، على الرابط الإلكتروني:
https: //sites. google. com/site/secretsofclouds/rains